رواية

هوامش المدينة

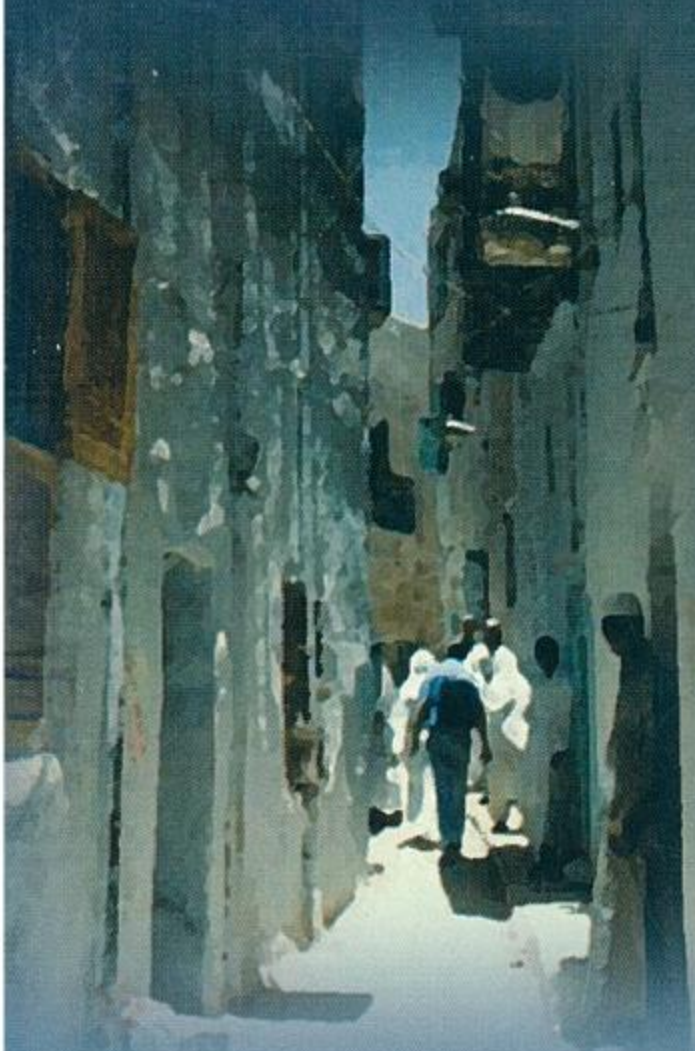

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عيدو)

أحمد الشيخ

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

هوامش المدينة

الشيخ، أحمد.
هوامش المدينة: رواية/ أحمد الشيخ. ــ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
١٨٠ص ؛ ٢٠ سم.
تدمك ٩ ٣٨٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٠١٠٢/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -384 - 9
ديوى ٨١٣

هوامش المدينة

رواية

أحمد الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

الإخراج الفنى : فاتن غالى

الغلاف : الحبيبة حسين

هوامش المدينة

حيرتنى ذاكرتى شبه المعطوبة بقدراتها المحدودة على رسم الصور الواضحة لبعض الأحداث لأتمكن من استعادتها وقتما أريد، ولأن ما يتبدى لى ليس أكثر من تداخل شاحب لأحداث أحسبها أساسية ومؤثرة فى حياتى وقد تحولت لتصاوير باهتة تختلف عما كانت عليه فى السابق بفعل ورثة درب الثلاثين، تزداد شحوباً وبهتاناً بمرور سنوات العمر خلسة على الرغم منى، ويختلط ما جرى بما صرت أراه فى المنامات والكوابيس والأحلام العابرة إلى حد يجعلنى أتشكك فيها وأقول لروحى إنها ذاكرة معطوبة لا يمكن أن أطمئن إليها بسبب فوات سنوات العمر القادرة على استعادة ما كان يدور حولى، أجدنى متشبثاً بقناعات تغزونى وتؤكد لى أننى لست مغيباً تماماً على النحو الذى تخيلته واستسلمت له، لعله نوع من مقاومة خفية للنسيان يبقى مخزوناً وسط تلافيف الدماغ، مسنوداً ومتداخلاً مع ما كنت قد قرأته فى كتب متنوعة حرصت

على امتلاكها لأعرف هويتى وما كان يجرى فى أزمنة سبقت وجودى ووجود درب الثلاثين نفسه، أتخيلنى مزروعاً مرة أخرى وسط أوراقها فتتبدى واضحة وتستهوينى لأقاوم النسيان وعطب الذاكرة بإرادتى أو بغيرها، ثم أتوصل إلى يقين بأن الزمن الذى عشته يستند على تاريخ مكتوب يحمينى من النسيان التام لما جرى لى بتدابير الأنصاف الكثار فى درب الثلاثين.

سوف أعترف لكم بعد فوات أوان التراجع بأننى طوعت روحى باختيارى أن أعيش وحيدًا ومقطوعًا من شجرة المدينة والدرب، لا أهل ولا زوج أو عيال، ولم يعد لى من أمل باق فى خلفة حتى لو سعيت لذلك لأن زمن القدرة ولّى، كنت موهومًا بأننى أضحى من أجل الناس وأنهم سيقدرون جهدى، لكن من صاروا يهيمنون على المدينة والدرب أنكروا أهمية ما توصلت إليه من نتائج مؤكدة لأنها لم تأت على هواهم، لعل المصداقية فى مثل هذه الأبحاث لا ينتج عنها أى مردود أو تقدير إذا ما كانت النتائج مخيبة للآمال أو الأوهام، ولأن النتائج أكدت أن غالبية من صعدوا منهم إلى مناطق الصدارة فى أحسن الأحوال من الأنصاف، فلا بد أننى أخطأت عندما واجهتهم بما توصلت إليه دون تغليف بعبارات ملتوية أو غير مباشرة لتحتملها قدراتهم الهشة على استيعاب الحقائق واثقًا من عدم رغبتهم فى تصحيح مسارهم أو ترقيع المناطق المهترئة التى تستر العورات إذا ما انكشفت، كنت فى البدايات عارفًا أنهم يجهلون ولا يعرفون، لكننى وظفت نفسى باحثًا فى أمور الدرب والمدينة وقد زالت الحواجز بفعلهم على مدار السنوات الأخيرة،

لعلنى توهمت فى بدايات المشوار أن ما سوف أتوصل إليه سيفيدهم أو يتحول إلى دليل أو شعاع ضوء ينير لهم سكة المستقبل المأمول ويخلص المدينة من العتمة الساكنة فى أركانها، راهنت على أدمغة أكابرهم المنوط بهم رعاية أهل الدرب والمدينة وقد انتقلت إليهم مقاليد الأمور على حساب المهيمنين القدامى ممن ورثوا ثروات طائلة وألقاب، والذين كانوا بحساباتى لا يفكرون فى غير ذواتهم، صدقت ما قاله لى الحاج "بركات" الذى تحول من تاجر خردة إلى صاحب مصنع غزل ونسيج متواضع، صحيح أنه فى مشوار طلوعه لم يرتكب حماقات تكشف نواياه فى ركوب أكتاف المطايا من الأتباع أو الأنصاف لتزويد الحيز الذى يسيطر عليه على حساب خلق الله لكن عياله فعلوها، كانت مسألة شائكة ومربكة بعد أن ودع دنيانا بشهرين أو ثلاثة وتسلم الوريثان تركة الرجل العصامى وأداراها على نحو مغاير يعتَمد أساسًا على أتباع متآمرين تحولوا لمطايا بشرية تزحف على أربع لو لزم الأرض للملمة ما يتساقط تحت المداسات أو يبرعون فى التهديد والوعيد لكل من يعترض طريقهم أو يكشف الحقائق وقد تزايدت الثروات فى أيدى حفنة أو حفنات من أبناء من أسسوا الدرب لحسابهم على حساب المستورين القدامى فى المدينة والذين انحدروا ليشاركوا المعدمين من العاطلين همومهم غصبًا عنهم مع من يعملون ولا تكفى رواتبهم مطالب بيوتهم الأساسية، وتذكرت ما كانت عليه أحوال المدينة القديمة قبل تأسيس درب الثلاثين وكيف تبدلت الأحوال على مهل لتتزاح الحدود ويتحول من كان مستورًا ومتعاطفًا

مع من كانوا يسكنون فى العراء منهم إلى خانة من يعملون لحساب الطالعين الجدد الذين رآهم فى الزمن الفائت وهم يكابدون الفقر والعوز، ولعلنى هونت على نفسى الأمر فى البدايات وواصلت مشوارى باحثًا عن الحقائق وناشرًا لها بمباركات الحاج "بركات" ومن كانوا يهزون الرؤوس إعجابًا بما استخلصه من نتائج مع شركائى الباحثين الجادين الذين يأملون فى إصلاح المفاسد، لكن السلالة الجديدة كانت تختلف عنهم وتعتمد على الأتباع الخانعين الذين يبرعون فى الوسوسة وكتابة التقارير الزائفة عمن يعترضون على تدنى الأحوال وسيادة الكذب ونقص السلع فى الأسواق وغلو الأسعار واستحالة العثور على مسكن لمتوسطى الحال أو المستورين القدامى بعد أن انحدرت بهم الأحوال فصاروا فقراء وتعساء لا يملكون حتى الحلم فى غد أفضل، كنت مع شركائى من الباحثين القدامى ممن انحدرت أحوالهم قد دخلنا المتاهة، عجزنا عن توصيل أفكارنا وكففنا باختيارنا عن مواصلة السعى تضامنًا غير معلن مع من تاه أو اختفى أو فصل من عمله فى مركز أبحاثنا الذى تحول إلى خرابة بالمعنى العلمى لكلمة خرابة، قدمت استقالتى للوريثين فبدت عليهما علامات النشوة كأنهما تخلصا من ورم خبيث دونما جراحة، فكرت فى تمزيق أبحاثى من باب استخسارها فى سلالة من أسسوا الدرب لأحرمهم من الاستفادة من جهودنا، والاستخسار يتبدى حلاً وحيدًا يليق بمواقفهما بعد أن حاصرونى بالكراهية وحجبوا كل ما كنت قد اعتدت عليه لمواصلة الحياة، ضروريات لا توحى بأى ترف أو تميز يليق بباحث أفنى

أغلى سنوات عمره فى خدمة مدينته وهامش درب ورثته مجموعة من المتأفقين الجدد مع ما تبقى من المدينة، وبدا لى فى بعض الأحيان أنهم قادرون على عمل أى شىء للتخلص من وجودى فى هذه الحياة، وهل كان يمنعهم مانع من تدبير حادث عارض مفتعل يلقى بى فى عرض الشارع كضحية لسائق سيارة متهور لم يتمكن بنى آدم من تسجيل رقم سيارته أو تحديد لونها؟ أو كان من الصعب عليهم تدبير حريق ناتج عن ماس كهربائى يقتحم مسكنى وأنا فى غفلة النوم؟ أو سقوط قالب طوب من فوق سطح بناية عالية فوق دماغى ويكون الفاعل بالقطع مجهولاً، كانت مثل هذه الحوادث ممكنة فى أى وقت بتدابيرهم وقد ساد فى زمانهم الكذب والتزييف والخداع، لكن أخوف ما كنت أخافه هو أن يتمكنوا باستخدام ملاعيبهم من شفط الهواء السارى حول مسكنى، أختنق مع العشرات فأتسبب دون قصد فى تقصير أعمار بشر أبرياء بلا ذنب، تواريت فى مكان مأمون بحساباتى متباعدًا عن مسكنى القديم إشفاقًا على جيرتى وسكان المربع الذى يأوينا بمنطقة التداخل القديمة بين المدينة ودرب الثلاثين الذى كان فى السابق تعيسًا تابعًا، لكنه تبدل وتحول ناسه إلى سادة جدد بلا قيم ثابتة أو أخلاق ضمائر بشرية يطمئن إليها أمثالى ممن تعرفوا على مكوناتهم على امتداد العمر.

***

أخفيت أوراقى فى أدراج مكتبى مرتبة ومحفوظة وجاهزة، آملاً فى إعادة اكتشاف محتوياتها بواسطة مجهول يأتى من سلالة الدرب ويتمكن بوعيه الأكثر من وعيهم وحياده الأكثر من حيادهم أن يتعرف على أهمية تلك الحقائق ويحاول أن يستفيد منها ويجد لناسه حلاً، رهان على مستقبل لم تظهر بداياته ولا أحسبنى سوف أعيش لأراه يتحقق فى زمن الباقى، ولعله كان قدرى أن أتعايش مع ناس الدرب القدامى وأضحى بكل ما كنت أملك من قدرات وخبرات من أجلهم باختيارى وأنا فى غفلة من أمرى.

***

كلفت نفسى بالبحث عن جذورهم ورحت أرصد سلوكياتهم مستعينًا بكفاءات وحماسات مجموعة باحثين من شباب الدرب يشاركوننى برصد أفعالهم وردود أفعالهم، مزهوين بما كنا نعتبره اكتشافات غير مسبوقة ونتأكد من صحتها، أسهر الليالى وأبحث عن الكلمات الدقيقة لتسجيلها فى أوراقى متوخيًا الحذر والدقة وعدم الخلط بين الحقيقة والوهم، لكن المأزق واجهنى عندما اكتشفت أن غالبية أعوانى من الباحثين الجادين يتباعدون أو يتم تشتيتهم فى بقاع مجهولة لأظل مع من تبقى منهم فى مواجهة من يهيمنون ويتحكمون فى مصيرى ومصير شركائى فى الأبحاث الذين كانوا من أصلاب ظهور ورثة الدرب أو مواليد بطون أمهاتهم، لكن وعيهم بالحقائق وضعهم فى خانة الخصوم مثلى، لعلنى استعدت ما سبق أن قاله المرحوم والدى بأننا من سلالة المدينة الأصلية ولنا علاقة قرابة من بعيد مع البعض ممن قاموا بتأسيس درب الثلاثين

فى بداياته بحسب دعاويهم، واختلاط السلالتين وتخلى أكابر المدينة عنى كان وراء اختيارهم لى لأسعى وأعاود السعى لأصل إلى حقيقتهم وأبوح لهم بما أتوصل إليه دون تزويق أو تغليف بعبارات ملتوية حسب الاتفاق المسبق معهم لأننى عايشتهم أكثر مما تعايشت مع جذورى القديمة فى تلك المدينة الأصلية فلم أتردد، بحثت لهم عن مخرج من مأزق يتحاشون مواجهته عبر سنوات كانوا يتباهون خلالها ويتوهمون بأنهم صاروا سادة زمانهم، لكن نتائج الأبحاث أكدت لى ولكل من ساعدونى أنهم ليسوا أكثر من أنصاف فى كل شىء، أنصاف غير واعين بما يدور حولهم، تحسست رأسى هلعًا لأننى من مواليد المنطقة المتداخلة بين حدود الدرب وحدود المدينة، تخوفت أن أكون مثلهم أو أن تكون أبحاثى التى انشغلت بها سنوات الشباب والرجولة والشيخوخة مشكوكًا فيها أو بلا قيمة علمية، لكن هاجسًا آخر حاصرنى فى صحوى ومنامى وأكد لى أننى أنتمى بالقطع لأهل المدينة الأصلية، صحيح أننى نشأت فى هامشها المتاخم للدرب بشكل مؤكد لكننى لم أكن أملك مع من عاونونى غير الصدق والسعى بدأب للوصول إلى الحقائق المجردة بعيدًا عن منطق الربح والخسارة كما يفعل الباحثين غير المؤهلين، وربما بسبب ذلك قررت أن أحتفظ بتلك الأبحاث التى استنكروها، فلعل واحدًا من أعوانى الذين اختفوا من سلالة الدرب أو سلالتنا من أهل المدينة الأصلية يأتى ويواصل مشوارى فى الزمن الآتى ليكشف الفوارق بين الأصلاء والأدعياء، الحقائق وأنصاف الحقائق.

يعرف أكثركم أن درب الثلاثين تأسس فى أرض صحراوية جافة وأنه كان هامشًا لمدينة عريقة حافظ ناسها على ميراث أجدادهم، كان هامشًا مشروعًا فى أزمنة بعيدة، ومهما قلنا عن كسل أهل مدينتنا القديمة قبل وصول ناس درب الثلاثين وسكناهم فى هامشها فلن نتوصل إلا لحقيقة وحيدة دامغة تقول إن سكان الدرب كانوا وسيلة لغاية، والغاية تبرر الوسيلة كما كان الناس يتهامسون فى آذان بعضهم البعض كلما لمحوا واحدًا ممن جاءوا وشكلوا فى أطراف المدينة هامشًا للوافدين الجدد الذين يقفون أحيانًا أمام أبوابها على استحياء ويعرضون خدماتهم بأى مقابل يعينهم على استمرار الحياة فى ذلك الهامش الصحراوى الجاف المحروم من الزرع والماء والخالى من كل ما يساعد على البقاء، وكان أهالى مدينتنا يستمتعون بسماع تلك العبارات التى تُقال لهم لتؤكد أنهم فى الحد الأدنى سادة، صحيح أننى كنت فى تلك السنوات ما أزال طفلاً ثم صبيًا يتفرج على ملامح وتقاطع والوافدين إلينا من الخيام المرصوصة على مرمى البصر، وكان يرضينى أن أرى والدى أو والدتى تمنح الواقف أمام بابنا شيئًا مما نحتفظ به فى الدار مقابل أى مهمة ينجزها، أشعر بالزهو رغم اعترافها أمامنا أننا من هامش المدينة أو منطقة المستورين بدعاء الوالدين، أصلاء جارت عليهم الأيام فسكنوا فى الهامش المتاخم لتلك البنايات العشوائية مغلوطًا بها أكثر من المدينة نفسها، ولعلنى فى تلك السنوات وبعفوية تامة كنت لا أعترض على اللعب مع عيالهم فى مثل سنى وأتسمع منهم الحكايات عن وجبات شهية تناولوها بعد أن حصلت

عليها أمهاتهم من بيوت الأكابر نظير خدمات هينة، وكان البعض منهم يتباهى بما حصل عليه من ثياب وصلت إليهم شبه جديدة أو على الأقل نصف جديدة كان يستخدمها أطفال وصبية من أولاد المتيسرين فى مدينتنا، كانت مثل هذه الحكايات تؤكد لى أنهم مساكين ويحق لهم أن يعيشوا وأن تتحول الخيام التى يسكنونها إلى بيوت تأويهم وتحميهم من زمهرير البرد وغزارة الأمطار فى فصل الشتاء أو سخونة الشمس وقسوتها فى الصيف، لكن توافدهم بكثرة وتشكيلهم لثلاثة هوامش تحيط بمدينتنا توشك أن تتداخل فيها حيّرتنى وأنا فى سنوات الصبا ومطالع الشباب، أشتاتًا كانوا يأتون من بلدان لم أسمع عنها فى الكتب الدراسية المقررة قبل أن يتوافدوا بكثرة ويتحولوا إلى مربع ينقصه ضلع واحد يحيط بمدينتنا من ثلاث جهات لأن الضلع الرابع كان بحرًا غويطًا وممدودًا لا يمكن للبنى آدم أن يرى له فى البعيد شطًا، لكنهم كانوا يستخدمون الهامشين عن يمين ويسار المدينة لركوب البحر بقواربهم دونما اعتراض، يصيدون الأسماك أو يجلبون البضائع من السفن العابرة ويعرضونها فى أسواق المدينة لمن يرغب فى الشراء، أشفق على سكان الدرب وهم يتكاثرون ويستجيبون ويطيعون أى تكليفات بعمل أى شىء ليؤكدوا تبعيتهم لأكابر أهل المدينة التى صارت تحتاج لخدماتهم وقد تحولوا إلى ضرورة يلزم التعامل معها والاعتماد عليها فى الكثير من المهمات، وكان من أسسوا الدرب يستخدمون الخيام لتأويهم وتسترهم فى ساعات الرقاد، وربما أراحت هذه التصرفات أكابر المدينة لأنهم تأدبوا ولم

يتجاسر أى واحد منهم أن يطلب من السادة مأوى يلجأ إليه قريبًا من الدور العتيقة أو السرايات أو القصور الموروثة التى كانوا يحرسون أبوابها طوال الليل أو النهار حسب الوردية التى يكلف بها أى بواب منهم، وفى خدمات المطابخ كانوا يظهرون التعفف وهم يتناولون ما يمن به سادتهم عليهم من بقايا الصحون أو الأطعمة التى باتت فى المواعين وفاحت رائحتها أو أوشكت أن تفوح، يأخذونها شاكرين ويسعون ناحية خيامهم ويتجمعون حول الوليمة هم وزوجاتهم وعيالهم أو إخوتهم وأخواتهم، يستشعرون الشبع بعد الجوع فيقبلون أياديهم ظهرًا وبطنًا ويحمدون المولى الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، كانوا يقومون بكل الأعمال المتواضعة دون مناقشة أو تردد مثل شراء الخضراوات من أسواق المدينة أو جلبها وبيعها على نواصى الحارات أو الشوارع وبأرخص الأسعار، أو غسيل الثياب وكيها وحمل الأشياء الثقيلة عن الكبار والصغار حتى لو كانت حقيبة مدرسية يتدلل طفل من أبناء الأكابر من المدينة أو يرفض حملها ويقول إنها ثقيلة، ولم يتوانوا فى عرض خدماتهم فى النجارة والسباكة وقيادة عربات الكاروا التى تجرها الحمير أو البغال، كان من المألوف أن تسمع أحدهم ينادى بصوته جنب مسنه يعرض استعداده لسن السكاكين والمقصات بأى أجر يجود به الأكابر حتى ولو كانت لقمة خبز جاف فوقها أى غموس ليتخلص من جوعه باللقمة الحلال، أعمال متنوعة يصعب حصرها بالإضافة لحرف أو مهن لها مسميات مثل قهوجى أو جزمجى وطرشجى وعربجى وخباز وتاجر قزاز أو فراز للمخلفات بعد أن

يحملها صبية يلملمونها على عربات الزبالة لتوصيلها إلى مقالبها، يأخذون ما يجود به أصحاب البيوتات بامتنان ويخلصونهم من مخلفاتهم ويبيعونها لمن وضعوا أيادهم على المساحات المفتوحة فى الصحارى المترامية التى كانت بلا أصحاب فى ذلك الزمن البعيد، يفرزونها بعد تغذية قطعان الخنازير التى جلبوها للمتاجرة فى لحومها فى الخفاء أولاً ثم فى العلن، لعل اكتشاف «مكمورة» الفول المدمس كان فتحًا لمن أحسنوا استخدام بقايا المخلفات، ربما لأن تدميس الفول على هذا النحو فتح أبواب الرزق لأصحاب دكاكين سكان الدرب أو من يسرحون بعرباتهم الصغيرة فى طرق المدينة، يسحبونها بأنفسهم أو يستخدمون الحمير لجرها ليبيعوا «المدمس أو البليلة» المجلوبة من «المكمورة».

كنت أتعاطف معهم وأشعر أنهم مساكين ومحكوم عليهم وعلى عيالهم بالشقاء وبذل العرق ليحافظوا على حياتهم على العكس من أكابر المدينة القدامى الذين ورثوا ثرواتهم عن آباء وأجداد نسمع أسماءهم فنشعر بالزهو لأننا بالقطع من سلالتهم، وأحيانًا نشعر بالسخط عليهم لأنهم يتعاملون معنا باعتبارنا من الطبقة الأقل قدرة، هوامش غير محمية من أهل المدينة الأصلية لأنهم بلا جاه أو سلطان مثل البكوات والباشوات الذين لا يشعرون بتلك المخاطر التى أصابت من كانوا يذوبون ويفقدون ببطء غير محسوس كل ما كان يميزهم ويحميهم فيتحولوا إلى فقراء مثل من وفدوا إلى هوامش الدرب واختلطوا بهوامش أهل المدينة، يتشابهون معهم يومًا فى إثر يوم فى السلوك والكلام وتناول الوجبات المتواضعة

فى مطاعم رخيصة بأسواق المدينة التى تمكن من امتلاكها بعض أهالى الدرب لبيع فول وفلافل وعدس وبصارة ولفت مخلل مع فجل وكرات وجرجير، وتبدلت أحوال من كانوا فى مناطق الستر من أهالى المدينة الأصلاء ليعيشوا فى الهوامش أيضًا، انقلبت الموازين لصالح سلالة من أسسوا الدرب، والأثرياء يعيشون فى مأمن على ثرواتهم التى تتزايد بتدابير خفية مع بعض المقاولين الطالعين من أهل الدرب الذين كانوا يشمخون بالأنوف أحيانًا ليزيحوا بأكفهم أسراب الذباب الذى يحوم أمام أعينهم وكأنه يعايرهم بطنينه المنطوق «أيامكم سلب ونهب للبسطاء من ناس المدينة وأنتم فى حماية أكابرهم الغافلين» وكان أخطر ما جرى هو أن أمثالنا من الناس المستورة انحدروا تحت خط الفقر، بينما المتأفقون بأساليبهم فى التودد للأكابر يصعدون، وبلا عمل كنت أسعى حاملاً مؤهلاتى لأعرضها على المسئولين عن الوظائف اللائقة فى مصالح المدينة، ولأن شيئًا مما كنت أحلم به لم يتحقق صرت عاطلاً بمؤهل عال أجوب شوارع المدينة وسراديب الدرب مع من هم فى مثل حالتى، نتجول ونجلس فى المقاهى لنلعب الورق أو النرد أو نتفرج على الأفلام القديمة فى التلفاز وندفع مبالغ متواضعة بالقياس لما كان يلزم أن ندفعه فى مقاهى مدينتنا مقابل نفس الخدمات.

مشحونًا بالقهر بعد إصابة المرحوم والدى بالشلل الرعاش على غير توقع بعد أن عرف قيمة معاشه عن خدمة ممدودة فى حكومة المدينة، لعله شعر بالمهانة وكتم مواجعه، ولعل عجزه عن توظيفى

زود عجزه وشلله الرعاش وعجل بموته، كان يعيش أواخر أيامه أو سقطة عمره فى مدينة استخدمته واستنزفته.

لكن خالتى كانت مختلفة لأننى كنت أتأمل فى صدر رجولتى وجوه الطالعين من خانة أتباع السادة وقد صاروا شركاء لهم، يسكنون المدينة رغم انحطاط سلوكياتهم بمباركة الأكابر فتسرى فى طرقاتها وبين جدران بيوتها همسات وهمهمات عن اختلاسات وسرقات مشتركة لصالح من يتحكمون فى مصائرنا من القدامى والمحدثين، يتحالف من خانوا المرحوم والدى وتسببوا فى شلله الرعاش الذى أودى بعمره مع من يتقافزون ويهيمنون وتتزايد ممتلكاتهم، فهل يحق لى أن أرجو أن تتحولوا معى إلى دروع تحمى المدينة التى ذابت هوامشها وصارت كتلة محاطة بناطحات سحاب زائف يحجب عنها نور الشمس؟

***

حدثنى المرحوم والدى فى المنام الممطوط عن درب الثلاثين وكيف تأسس ودارت من حوله الأحداث ثم وصل إلى ما هو عليه حاله فى زماننا، كانت أجزاء المنام المتتالية تأتينى متتابعة فى بعض الحالات ومتنافرة أو متداخلة فى غالبية الأحوال، وكنت من ناحيتى لا ألتفت إليها كثيرًا أو أهتم بحصرها أو أفكر مجرد تفكير فى تسجيلها، ربما لأن المرحوم والدى طمأننى مرارًا بأننى سوف أتمدد إلى جواره فى القريب العاجل لأرتاح مثله من كل المكابدات المجانية، بشرنى بقرب نهاية أجلى المحتوم فحرك رغباتى

الساكنة والمكبوتة فى أن أسر إليكم قبل الوداع ببعض ما كنت قد رأيته وتناسيته أو خفت من لملمته كى أصوغه لكم فى الوقت الملائم مرتبًا بقدر المستطاع فلعله يشكل تجربة بشرية عابرة لبنى آدم عايشكم محاصرًا محسورًا ومسلوبًا منه ومنهوبة حقوقه المشروعة ليظهر إمكانياته فى إضافة تخصه لدرب الثلاثين بفعل تعويقات مزروعة بإحكام فى سككه الموصلة لأبواب مسكوكة فى دربه، يطرقها فيفجعه أنها تبقى مغلقة فى وجهه، ويعاود السعى ويقصد أبوابًا أخرى من أبوابها فيلقى نفس المصير، مشاويره مضنية وخبطاته على أبوابها لا تنفتح أو تطلع منها أصوات لترحب به كما يتمنى أو تطرده لأسباب معلنة، يتخوف أن يتحول إلى كائن يكد من أجل ضروريات حياته الأساسية، تتبدد إرادته أحيانًا أو يتأكد أنه انكتب عليه بإشاعات خصومه فى الدرب أن يتحول إلى ثور يستهلك عمره فى الدوران داخل نفس المدار لتتدفن طموحاته وينسى أحلامه الوردية، يتأكد أنه محجوب فى مناطق عتمة رغم يقين بداخله أنه أكثر من خصومه عشقًا لدرب الثلاثين حسب التسمية التى أبلغنى بها المرحوم والدى فى المنامات وعلى وجه الدقة أبلغتنى بها روحه الهائمة فى الفراغ:

«تأسس درب الثلاثين الذى يسكنك وتسكنه على شكل مجلس موقر أو كان من المفترض أن يكون مجلسًا موقرًا فى منتصف سبعينيات القرن المنصرم على يد جماعة مسموعة الكلمة فى زمانها بينها لواء سابق وعميد عالم وباشا يحتفظ بلقبه رغم إلغاء الألقاب بشكل رسمى ونصف باشا ونصف بك سابقين وسفرجية

وطباخين بالإضافة لكتبة ومحررى عرائض محترفين ونائب فى الكونجرس لم يوفق فى مواصلة دوره كنائب عربى بحسب زعمه رغم اعتماده فى مجلس الثلاثين كعضو مؤسس مثلك، لكنه كان يحدثكم ولا يمل الكلام عن فترة ذهبية حظى فيها بتمثيل أقلية تنتسب فى الأصل لكم وعن دائرة انتخابية لم يتعرف عليها أحد إلى الحد الذى جعلكم فى المجلس بعد تأسيسه تتهامسون فى غيابه بأنه نائب نصاب أو أنه لم يكن نائبًا ولا يحزنون لكنه أحاط نفسه بكذبة مفضوحة ليكون له وزنًا أو قيمة بشكل توهمه ضمن مجلس الثلاثين الساكن فى درب الثلاثين».

«كانت هناك فى الجوار مدينة قديمة يتردد اسمها فى كل أرجاء الدنيا المسكونة باعتبارها أول مدينة تتأسس وتتبنى حيطانها وتنحط عليها سقوف من الخشب أو الصخر مسنودة على عواميد منتصبة وثابتة وقوية وقادرة أن تتباهى بدوامها واستمرارها على امتداد القرون، ولو كان للصخر لسان يتكلم أو يعرف كيف يعاند البشر لأخرجت تلك العواميد ألسنتها لكل من يراها لتعايره بطول عمرها وصلابتها وثباتها على العكس من هياكل بشرية محنية لا تمانع أن تتبدل إلى ظهور تتشابه مع ظهور الحمير أو البغال تتمنى لو صارت ظهورها أكثر براحًا لتصل إلى مستوى ظهور الخيل العربية الأصيلة لأن من يعتليها فى هذه الحالة سوف يكون فارسًا جديرًا بكل تبجيل وتوقير واحترام يشفى غليل المطايا المركوبة التى هى فى الأصل هياكل بشرية انحنت لتعيش باختيارها توابع أبدية لسادة مشكوك فى أصالتهم أو أحقيتهم فى الركوب فوقهم

بعد زوال زمن الباشا الأصلى والبك واللواء السابق ممشوق القوام والعميد العالم، ذلك أن الأيام دول نداولها بين الناس».

وقف المرحوم قبالتى ومد يمناه فى اتجاهى يدعونى رغم صمته لأتبعه وأخرج من المكان، مددت له يدى شأن أى طفل مطيع ليسحبها ويتحرك بى خارجًا من مسكنى الضيق متجهًا ناحية الفراغ المجهول بالنسبة لى، كان هناك ضباب كثيف وثلج يتساقط علينا فأشار علىّ بأن أرفع الكفين لأدارى بالراحتين المفرودتين رأسى العريان الأصلع، لكننى كنت أرتعش وأقول لروحى: ربما استشعر هو الوحدة فى مدفنه واقتادنى لأول مرة خارج مسكنى لأؤنسه هناك قبل الأوان، أتساءل بينى وبين نفسى وأنا أسمع صوته إن كان من الممكن أن أتحاور معه فى قبرنا المشترك مستقبلاً على العكس من مواصلة سماعى لصوته دون ردود أو تعقيبات مثلما كان يحدث فى ذلك الوقت:

«لا تجهد نفسك وتسأل فأنا أقرأ أفكارك وأسكن خلايا مخك فى صحوك ومنامك، سوف تكون الأمور أبسط بالنسبة لك لو شاركتنى المدفن البراح رغم مظهره المتواضع من خلال رؤية الأحياء التى هى بالقطع قاصرة وعاجزة عن الإدراك الصحيح دومًا لأن المدافن مفتوحة على كل الفراغات غير المرئية لأمثالكم من الأحياء، ولقد جئت بهدف إنقاذك وإخراجك من دوائر الهم المتواصل بعد أن تحولت بسبب صلابة دماغك وعدم قدرتك على التعايش وسط ركام المفاسد والأكاذيب إلى بؤرة تنصب عليها

لعنات الكارهين ووشايات أنصاف الفاشلين والمعوقين وشائعات أتباع الأتباع، يطاردونك فى وجودك وغيابك بلا خجل وبتبجح دونما حياء، أى حياة تلك التى تحياها وقد تأكد عجزك عن المسايرة لتواصل المشوار الذى وعدتنى قبل رحيلى بأن تكمله؟

صدقنى أن راحتك وسكونك وسكوتك فيهم خلاصك ما دمت جاهلاً بمتطلبات الزمن الذى تصادف وخلفتك ثم تركتك فيه بلا قصد أو نية مسبقة فى إدخالك تجربة صعبة أو اختبارات متواصلة أو اختبارات ممزوجة بتعويقات وتعطيلات متتالية لم أفكر فى تدريبك على مواجهتها لأن الزمان اختلف بمثل ما تغيرت مواصفات المكان، ولا يخفى عليك أن البشر يتغيرون دون قصد أو بمقاصد مخفية فيبدو الأمر مصادفة، لكنها بالتحليل المتأنى يتضح أن المصادفة مدبرة فى الخفاء، ومعظم ما يدور حولكم مصادفات مدبرة لا يدبرها جن ساكن تحت الأرض ولا مارد مارق أو حتى شيطان وإنما يدبرها بشر أنصاف وأرباع أو فرافيت تتوطأ وتسعى لتكون مطايا باختيارها، تتناقص أعداد من يسبحون ضد التيار ثم يتخلى كل من كانت له مشاريع أو مبادئ أو عقائد راسخة عنها ويبدل خلاياه ويلونها بكل ألوان الطيف وما هو بعد ألوان الطيف لمجرد الرغبة فى الاستمرار فى الحياة، فأى حياة؟ اتبعنى وسوف ترتاح، ولأننى كنت أعرف ما يسعدك ويرضيك فى الزمن القديم فأنا أيضًا أعرف ما يريحك ويحميك من كل شقاء ووجع، اتبعنى وسوف ترتاح عندما تحلق روحك فى الفراغ غير المحدود وتتحرر من جاذبية تلك الأرض الفسدانة".

لابد أننى كنت أحلق فى الفراغ فعلاً وأشعر بارتياح لم أجربه أبدًا من قبل، قلت لروحى الهائمة المتحللة من كل ما يربطها بأى أرض:

«ها هو الفردوس المأمول فلا جوع ولا عطش ولا برد ولا حر ولا ضيق تنفس أو مواجع من أى نوع، وكان هو فى البعيد عنى مشغولاً بروحه الحرة أكثر منى، لابد أن الخلاف بيننا كان بسبب تخلصه المؤكد من الجاذبية الأرضية بينما أشعر من داخلى أننى فى رحلة وسوف أعود إلى تلك الأرض البعيدة حتى ولو من أجل أن أموت لأحرر الروح من البدن الذى كان ما يزال محمولاً فى فراغ وإن كانت الجاذبية الأرضية تستدعيه وتتبدى لى من بعيد شارات وبنايات وطرق وأنوار خافتة وأنفاس بشر تستدعينى كى أعود، وعيالى فى مراقدهم يتقلبون ويتحركون ويتأملون فراشى فأفيق لنفسى ويتأكد لى أنه محض منام مخادع وأننى ما زلت أعيش».

***

فى المنامات الممطوطة نصف الناعمة ونصف الخشنة، والتى كانت تتبدى لى متداخلة متشابهة مع معظم ما كنت أراه فى صحوى، حدثنى المرحوم والدى عدة مرات عن درب الثلاثين، وكيف كان يدار بعد أن تأسس وصار حقيقة يصعب إنكار وجودها، من ناحيتى كنت أندهش لأنه يتذكر تفاصيل ما جرى وكأنه كلف نفسه وكلفنى بأن أتأمل مثلما يتأمل هو بعيدًا عن مسئولياته الإدارية التى كان يقوم بها والتى ورثتها عنه فى المدينة الأصلية

لرصد ما كان يجرى ويدور فى درب الثلاثين وناسه، ليس فقط لأن بناياته العشوائية تمت إضافتها لمدينتنا والتحمت بها بحيث صار من المستحيل وضع أى حدود تفصل بينها وبين تلك البنايات التى أسماها ناسنا وسكان مدينتنا الأصلية «درب الثلاثين» ولا أحد منا كان يدرى سببًا لاختيار هذا الاسم، تداخلت أطراف الدرب فى أطراف المدينة من الناحية الهندسية، ولأن المرحوم والدى كان مهندسًا مسئولاً فى مدينتنا مثلما صرت أنا باعتبارى وريثه فى كل شىء بما فى ذلك مهنة الهندسة فقد واصلت دوره، لقد كان يستطيع أن يتناسى مهنته ويتعامل مع ناس الدرب باعتباره باحثًا اجتماعيًا يسجل فى ذاكرته دون تكليف من أحد معالمه وتصرفات ناسه وأساليبهم فى الحياة، كان لا بد أن أفعل نفس الشىء، لعله أوهمهم أو أقنعهم بطريقة أو بأخرى أنه واحد منهم أو أن جذوره تلتحم بجذورهم بشكل ما، ولا بد أنهم صدقوه، كان يسهر بينهم فى أمسيات الخميس ويشاركهم متضاحكًا وساخرًا من أى شىء وعلى أى شىء بنفس طريقتهم فى السخرية والضحك، ومن ناحيتى لم أكن لأعترض على مشاركته جالسًا بجواره فى تلك الأمسيات وأنا صبى راغب فى الفهم ومكره فى نفس الوقت على السهر بينهم، أتأمل وأتأثر وأحتج وأوافق وأضحك مثل كل الصبية فى مثل عمرى ممن ينتسبون بالقطع إلى ناس «درب الثلاثين» حسبما كان أبى يؤكد لى فى مشاوير الرجوع لمسكننا الكائن فى الناحية الأخرى من المدينة، الناحية المتباعدة عن مناطق التداخل التى كان سكانها يتباهون لكونهم متباعدين عن درب الثلاثين وسكانه ذوى

السمعة السيئة، لعل التشدد كان يتناقص عند سكان مدينتنا الأصلية كلما اقتربت بناياتهم من الدرب إلى حد انعدام التعالى أو الشعور بالاستخفاف أو السخرية من الناس أو البنايات فى «درب الثلاثين».

ولأن فصل المنامات عن الواقع المعاش كان بالنسبة لى صعبًا أو مستحيلاً فقد صرت عاجزًا عن تفسير سلوك والدى وأنا صبى تابع له فى البدايات، لكننى عندما صرت شابًا راغبًا فى تفسير كل ما أشاهده أو أعايشه كنت أطرح على والدى أو على نفسى عشرات الأسئلة، وربما بعد رحيله تضاعف العبء لأننى افتقدته وفقدت فى نفس الوقت تفسيراته أو ردوده على أسئلتى، لكن المخزون فى الذاكرة كان كافيًا وقد تداخلت رؤيتى مع رؤيته، لعلنى كنت أفكر بعقله وأرى بعينيه وأتحدث بلسانه وأستشعر اطمئنانهم لوجودى بينهم مثلما كانوا يفعلون معه، وعليه فإنه من العسير أن أفصل بين ما كان أبى يراه فى السابق وما كنت أراه، وربما أحكى لكم بنصف لسانه ونصف لسانى عن «درب الثلاثين» وبدون أى فواصل.

***

فى ساحة الدرب كانوا يتجمعون مساء كل خميس دون ترتيب مسبق، لكنهم اعتادوا مثل تلك الاجتماعات التى تشى بنوع من الألفة المتبادلة، ربما بغرض السماح لمن يرغب فى الفضفضة أن يفعل ذلك على مرأى ومسمع من الجميع، صغارًا وكبارًا وشيوخًا

وشبابًا وصبية، كانت الأصوات تأتيهم من كافة البنايات المحيطة بهم أو المجاورة لهم مخلوطة وخافتة وغالبًا حول قضايا تافهة، وكان الكبار منهم يضعون كفوفهم حول آذانهم متظاهرين بأنهم يتسمعون باهتمام قبل أن يعلق أحدهم بنكتة تجعلهم ينطلقون فى ضحكة جماعية ساخرة من جيرانهم أشباه العجزة وأشباه الأكابر عن مسايرة الزمن أو فهم مواصفاته وكيفية التعايش معه.

على هذا النحو دائمًا كانوا يبدأون اجتماعاتهم الأسبوعية فى الساحة البراح التى تشعرهم بالنشوة وقد زرعوها بالأشجار والنباتات التى تحيط بها زهور لها روائح منعشة، ولم ينسوا أن يضعوا فى الأركان صفوفًا من زهريات ملونة ومنقوشة وبداخلها نباتات وزهور صناعية لتكون بديلاً تتحط عليها العيون فى حالات الجفاف التى تصيب الزهور الطبيعية بعد مواسم نموها وازدهارها أو سقوط أوراق أشجار شائكة تشكل سورًا حول الساحة، يمكن أن يُقال مثلاً أن أهالى درب الثلاثين لم يتركوا شيئًا للصدفة.

كانوا يتجمعون بشكل منتظم ولديهم استعداد لسماع أحدهم إذا قام وادعى أن جده الأول أو الثانى أو حتى الثالث كان أول من اكتشف المكان وقد كان مهجورًا ومهملاً، اكتشفه وأسسه على كتفيه وبجهده وعرق شبابه متطوعًا وبلا أغراض، كانوا يتبادلون النظرات المؤيدة لمن بدأ الكلام قبل أن ينهى كلامه ويجلس وكأنه يستدعى أى واحد ليرد عليه، يوافقه أو يستنكر وعيناه تستشهدان بكل من حولوا نظراتهم ناحيته من المجموعة المتطلعة التى تنتظر

دورها بعد أن يؤكد لهم مثلاً أن جده أو والد جده هو الذى بدأ المشوار الحقيقى والفعلى لتأسيس الدرب:

- كان والد جدى الثانى يسعى راكبًا عربة المخلفات التى يجرها حمار المرحوم والده ليفرغها فى مقلب الزبالة غير المعتمد والبعيد عن مراقبة أجهزة الأمن أو أجهزة الحماية الصحية المنتشرة فى الأحياء المأهولة والمسكونة فى المدينة الأصلية، وقد كان سكانها يتحدثون عن حقهم فى أن يتمتعوا بالنظافة لحماية أنفسهم وعيالهم من أى قاذورات أو مخلفات قد تكون مرتعًا لجراثيم أو حشرات تزحف على البنايات وقد تسبب لهم الإصابة بالأمراض وتجعلهم يطالبون الحكومة - التى لا تتوانى عن تحصيل الضرائب منهم - برعاية صحية أو تشعرهم بالعوز أو المهانة وهم يطلبون قرارات للعلاج على نفقة حكومة مدينة مديونة بالمليارات فى ذلك الزمن البعيد المنصرم.

كان بعضهم يتبادل النظرات إعجابًا بما يسمع والبعض الآخر يستهجن بتقاطيعه قبل أن يتحفز للمشاركة أو يحفز واحدًا آخر ليقول ما يعن له، ربما رغبة فى تغيير الإيقاع أو والدخول مباشرة فى تفاصيل التفاصيل التى تخصهم على وجه التحديد قائلاً:

لقد تأسس درب الثلاثين فى غفلة من الزمن، لكنه صار حقيقة تسمح لمن يقطنه بأن يتباهى ويشمخ بأنفه لأنه من سلالة المؤسسين، سأذكركم بأن العشة القديمة التى كان يمتلكها المرحوم جد والدى عاش بجوار درب الثلاثين قبل أن تتحول

لعمارة متعددة الطوابق يؤجرها مفروشة لأى وافد متيسر الحال وجاهز للدفع بسبب قلة البنايات الخالية وسط المدينة القديمة وبأضعاف تكاليفها بحساباته بديلاً عن تأجيرها لأبناء «درب الثلاثين» وبينهم أنصاف أكابر يتمادون فى الجعجعة زهوًا لو أن واحدًا منهم دفع إيجارًا لائقًا لمالك من أهل الدرب، وربما يشتكى أو يعلن أنه يدفع دم قلبه لوضيع لا يستحق من أهل دربه.

يلتقط الخيط ممن كان يتباهى بما صار يملكه فى غفلة من زمانهم الذى منحهم بسخاء وبلا حساسيات منحازًا لأغلب كيانات دربهم على وجه التحديد ممن أصابهم الحسد من عيون حسادة يتواجدون فى كل زمان ومكان، لا هم لهم إلا زرع بذور الفتنة والكراهية ضد حى لم يكن موجودًا لكنه صار هناك برهانًا ودليلاً على قدرتهم على تخطى كل الحواجز والموانع، يقولون لبعضهم البعض مثلاً وهم يخرجون ألسنتهم لأى متباه تياه ينقل لهم الأخبار التى سمعها بأذنيه فى سوق المدينة مثلاً، لعلهم كانوا فى تلك الحالات يبعدون عن أنفسهم آثار العيون الحسادة التى تتناسى ما كان فى السابق مرارات من عاشوا فى هامش الهامش ثم فتح الله عليهم باللقمة الحلال وأورثهم فى أرضه مساحة تسمح لهم أن يواصلوا الحياة كحق مشروع وهبه الرب الخالق لمخلوقاته رغم كونهم ليسوا من أولاد الأصول كما يدعى خصومهم، المسألة من أولها إلى آخرها كلام فى كلام لأن العارف بالأصول والجذور هو الرب نفسه وكل تلك الدعاوى ناتجة عن كراهية دفينة فى نفوس تكره الخير لخلق الله، ثم ماذا لو أن السادة الجدد تبدلت حياتهم من تعاسة متواصلة لراحة

واسترخاء بغض النظر عن أساليب التحقق؟ بل إن رجلاً فى مقتبل العمر من سكان «درب الثلاثين» كان يبرع فى سرد حكايات وروايات عن أسرة من الأكابر المحسوب حسابهم فى المدينة الكبيرة:

- رغم أن جدهم كان «سباكًا» بلا محل أو مأوى، رأسماله صندوق خشبى مرصوصة فيه عدة السباكة التى اشتراها من سوق الخردة بمليم أو بقروش فى زمن الرخص وقبل أن تتبدل الأحوال إلى الحد الذى جعل بعض السلع تباع بألف ضعف أو عدة مئات من الأضعاف، وعليه فإن قانون التغير ملك مشاع لكل خلق الله ولا يحق لمن تبدلت أحوالهم فى السابق أن يقللوا من أقدار من تبدلت أحوالهم بشكل معاصر، والرب عليم بخلقه وقد عفى الله عما سلف، وقد قال لنا أستاذنا فى الجامعة مثلاً أن «أبعادية» فلان الفلانى كانت مكافأته لأنه ابن طباخ الباشا الواقد من خارج الحدود والذى حكم البلاد وامتلكها ثم وهب لمن شاء أبعاديات أو مناصب ورتبًا وألقابًا مثل الباشا أو البك أو الأفندى.

يتبدى لبعض من يسمعون أن مثقفًا ودارسًا للتاريخ يحدثهم بالبرهان العلمى الذى لا يحق لهم التقليل من قيمته مهما كانت ادعاءات الخصوم، يرتاحون ويستشعرون ما يمكن أن نسميه زهوًا طارئًا قبل أن يتذكروا أنهم لم يجتمعوا كى يتحدثوا عن غيرهم من الناس فى قلب المدينة وإنما ليتناقشوا فى أمورهم الخاصة جدًا، ولم يكن فى الأمر عيب لو قاطع واحد من كبار السن ذلك الدارس لتاريخ المدينة، يقول له مثلاً وقد ضاق صدره:

- أخشى ما أخشاه أن تحدثنا عن الفراعين وأيامهم والذين كانت لهم أهرامات ومسلات وتماثيل وأوراق بردى وآثار متناثرة فى مدن متباعدة تعرفها أنت أكثر مما نعرفها، ولقد ضحى أولياء أمرك وأنفقوا عليك لتعرف وتتعلم، لكنهم لم يطلبوا منك أن تتوهنا فى سراديب التاريخ القديم، وكل ما نفكر فيه هو حالنا اليوم بالمقارنة لحال سكان المدينة التى نتعايش فى حماها كدرب هامشى متداخل فى حدودها.

يتهامسون ويتنهدون ويخففون عنه العبء عندما يقول أحدهم مؤيدًا بعد عدة نحنحات قبل أن يأمره ليغير الموضوع أو يسكت

- كلمنا عن أحوالنا ودع الخلق للخالق

يتضاحكون تعليقًا على المقاطعة قبل أن يبدأ أحدهم أن يذكر لهم بزهو يشعرهم بالونس، قائلاً بتباه مقبول منهم أن المرحوم والده كان واعيًا لروحه فى بدايات الحياة وأنه كان بارعًا فى كيفية أن يكنز القرش على القرش والمليم على المليم ومن صدأ أسنانه كما يقولون ليبتنى له ولسلالته ما لم يكن يخطر على خياله أو خيال أجداده قبل أن يتشكل الدرب على النحو المحفوظ والمكشوف فى ذاكرة الكل، حكايات متواترة للكل ومعلنة لكنها لا تثير أكثر من بعض الخلافات فى الشكل فقط لأن الكل يعرف قانون اللعبة فى درب الثلاثين «ما تطوله يدك لا تفرط فيه وإلا صرت مثل من يرفس النعمة بقدميه».

يتبادلون النظرات المتواطئة والجاهزة لتصديق الحكمة المعلنة ويهمهمون بما يفيد أنهم يقبلونها على علاتها ليريحوا أدمغتهم من تلك المهاترات الوافدة من الناحية الأخرى لناس لهم تاريخ غامض لكنهم يسمحون لأنفسهم بانتقاد الغير، وعليه فقد لجأ الأكثر وعيًا منهم للتباعد عن هؤلاء المتطاولين الذين لم يحسنوا انتهاز الفرص فى الأوقات الملائمة لقلة وعيهم فراحوا ينعقون كالغربان على الأطلال، يضحكون فتجلجل أصداء أصواتهم وتنتشر وتبعث النشوة فى القلوب لأنهم أحسنوا انتهاز الفرصة وسمعوا كلام من كان يحدثهم فى السابق عن دربهم:

- كل نفر فى هذه الدنيا معلق من عرقوبه كما يقول بعضكم للبعض وتتضاحكون فى نشوة، جهزوا أرواحهم لمعايشتنا فى مثل تلك الاجتماعات الأسبوعية لتغتسل نفوسكم من مواجع قد تطرأ عليكم فى سعيكم خلال أيام الأسبوع كله، مواجع تشعركم أن الحياة قاسية وصعبة ما لم نتحايل عليها لأن الاستمرار فيها مثل خصومكم عبء لا يستهان به

وذات مساء قام مساعد زبال قديم أصبح تاجرًا للخردة يلعب فى سوقها كما يحلو له أمام الجمع الملموم فى الساحة البراح بعد صلاة العشاء تقريبًا ليقول:

- أنا قلت لروحى يا ولد يا عنتر: كيف تتردد فى إخبار الوالد؟ إن مواصفات المكان وإمكانياته كملجأ مأمون من المتابعات والمطاردات التى يتعرض لها الزبالون الساكنون فى أطراف

المدينة الأصلية تتطلب منك الشهامة وتقديم المساعدة لكل من يستحقها من الناس القابعة فى القاع، فى قاع القاع، فجاء أبى وعاينه وبارك اكتشافى ووضع أول حجر أساس فوق مربع كتبنا عليه اسمه فوق رخامة بعد أن تولاه المولى برحمته، وكان هو أول من ابتنى مقبرة خصوصية فى دربنا، فهل يجادلنى فى الدرب أحد؟

يتبادلون النظرات فى غبطة ويهزون رءوسهم تأييدًا ليتحاشوا الدخول معه فى جدل مجانى بينما يتبادلون الأنفاس من عشرات التراجيل المشطوفة والمرسوم عليها زخارف بماء الذهب، متعة يحق لكل من ينعم بها أن يتغاضى عن مثل تلك الصغائر الشبابية وقد شافوا أضعاف أضعافها فى الزمن القديم وما زالوا يشاهدون منها الكثير سواء فى دربهم أو حتى فى المدينة التى يتعايشون على هامشها فى النهار ويتركونها وديعة للخالق البارئ فى الليل الممدود بعيدًا عن أى احتكاكات قد تنشأ بينهم وبين الأكابر الجدد وأنصافهم، كانت المدينة مصدر الرزق بغض النظر عن مشروعيته أو عدم مشروعيته «وربك عليم ستار على عباده المساكين» كما يقول أكبرهم سنًا فى كل جلسة ونس ودفء بعيدًا عن مهاترات لا لزوم لها، المهم أن يبقى الحال على ما هو عليه ويبقى الدرب مأوى مشروعًا ومرخصًا له بالبقاء، وبرغم التواطؤ المحسوس بين الكل وضد الكل ولحساب الكل يقوم واحد من فوق مقعده ليعلق قائلاً بحماس ليستدر عطفهم عليه رغم كونه يتحرش بهم فى عبارات ساخنة وساخرة:

أبدًا، المسألة كذب فى كذب وكلكم تعرفون الحقيقة لأن المرحومة جدة جدتى لأم كانت رائدة فى تأسيس «درب الثلاثين» قبل كل من يدعى غير ذلك، هل ينكر أحدكم أنها كانت شريكة فى «مكمورة» الفول المدمس؟ وهل كان من الممكن أن تستمر المدينة الأصلية نفسها فى حياتها من غير الفول المدمس؟ خصوصًا فى أطراف تلك المناطق التعسة التى عاشتها غصبًا عنها تنتظر كل صباح صحن الفول لتشبع به بطونًا خاوية كنتم وكنت وكانوا منها؟ كانت «المكمورة» هى المخرج والحل لأهاليكم وأهاليهم يا من تعاليتم على أصولكم وأصولهم الأولى، وأنتم تحسبون أن ذاكرة الأجيال الجديدة لا تعرف ما كان قد جرى فى السابق قبل أن يتأسس الدرب، ألم يكن مقلب الزبالة المكتشف بواسطة والد جد زميلنا حسبما نقر ونعترف ولا نفكر أن نفسد عليه حقه فى الزهو بماضيه هو الأصل الذى تحول إلى «مكمورة» قبل كل شىء؟ وبعيدًا عن تاجر الخردة الشاطر وجماعات الزبالين القدامى وماسحى أحذية من عباد الله ومن كانوا يلملمون أعقاب السجائر فى علب من الصفيح ويسلمونها لتاجر الدخان الساكن تحت سلم بيت ليعيد تشكيلها دخانًا كنتم تستخدمونه رغم معرفتكم أنه مضروب أو مغشوش بحسب ما كنتم تقولون وأنتم تضعونه داخل ورقة «البافرة» وتلفونها حوله لتتشكل سجائر أو أشباه سجائر؟ ألم يشعر أحدكم بالخجل لأنه تجاهل دور جدة جدتى لأم يا أقارب من احترفوا لملمة السبارس؟

كان الرجال الكبار ذوى الخبرة المكتسبة يهزون الرؤوس للشاب المتحمس الذى لم ينس دور جدته لأم فى استثمار المكان على أفضل نحو فى البدايات، يشير إليه واحد من كبار السن قائلاً:

- ومن منا يرغب فى إنكار دور المرحومة جدتك فى تأسيس أول «مكمورة» لها ترخيص رسمى يا ولدى؟ نحن هنا نتحاور فى الأصول القديمة ويحق لكل واحد أن يتباهى بما صارت إليه أحوال الدرب على حساب من سبقونا لمكان ما كنا نعرف عنه شيئًا قبل امتلاكه وإدارته لصالحنا، بما فى ذلك المناطق التعسة التى ما زالت تعيش على ثمار الفول المدمس «مكمور» الذى هو فى الأساس أرخص وأفيد وأكثر كسبًا لصاحب عربة اليد والزبون الغلبان الذى لا يجد غيره ليتغذى به هنا وهناك؟ اطمئن

يجلس الفتى مزهوًا بنفسه ويبدو عليه الارتياح وكأنما وضعوا على صدره وسامًا، ولأن فكرته قوبلت باستحسان رغم اندفاعاته فى ختام الحوار، لكن خبرات الكبار كفيلة بتبريد الساخن وتجميد المتحرك فى الأوقات المناسبة ليبقى الحال على ما هو عليه.

على هذا النحو كنت أرى «درب الثلاثين» وأتخيله رغم أننى ما زلت عاجزًا عن الفصل بين ما رأيته رأى العين وما رآه والدى وقد اختلط علىّ الأمر أيضًا فى المشاركة بالسماع أو النطق.

***

فى البدء يلزم أن أحيطكم علمًا بأن ما رأيته أو سمعته كان مخلوطًا، وأن الفصل بين الواقع والخيال والحلم والمنام والكابوس والرؤيا الزائفة أو الحقيقية كان ترجمة لتوهان العقل، كنت أنا وأبى

نتبادل الحوار أو نتسمع أصواتنا الطالعة من مكبرات صوت لم نفكر أبدًا فى استخدامها، كان يتبدى لى أننى أسمع صوته وهو يقول كلامًا منطوقًا على طرف لسانى غير ممنوع من الطلوع، بمثل ما كان هو حسبما صرح أكثر من مرة بأنه يسمع صوتى من خلال مكبر الصوت وأنا أقول كلامه المنطوق، كنا إذن نتبادل الأصوات مثلما كان يتبدى لى صاحيًا يتحرك حولى وحول نفسه بحيوية رغم رحيله عن دنيانا منذ ما يزيد عن العشر سنوات، أقوم مفزوعًا من مرقدى فأكتشف أنه ليس سريرى وإنما هو ركن فى ساحة قبر براح مزحومة بخلق الله من الأعمام والأجداد الراحلين مثل أبى - قبله أو بعده - لكنهم متواجدون، يتسمعون باهتمام كل ما يقال، وتتداخل أصواتهم مع أصواتنا فلا أتمكن من الفصل بينها من كثرتها، لكننى أستشعر دفء الفراش على فترات متباعدة وأثق أنه منام ممطوط أو حلم ناعم أو كابوس بلا بداية ولا نهاية، أستسلم قائلاً لنفسى إن الوجود والعدم صنوان لا يمكن الفصل بينهما، وأن صحوى يتعادل مع رقادى بمثل قدرة أبى على الحركة والكلام والتنفس وأنا العارف والواثق أنه ميت ومدفون فى مقبرته بشهادة كل سكان درب الثلاثين منذ سنوات، أتعايش مع الحالة وأشرح لكم بحياد مشكوك فيه - منى أنا نفسى - ما كنت أسمعه أو أراه.

***

يعرف كل الناس فى درب الثلاثين الذى نسكنه ويسكننا، إن الألقاب المنطوقة التى تقال لمن لا يستحق مجرد مجازات للعبور،

أو هى تراخيص وهالات يمنحها بسطاء الناس لأنصاف الأكابر الطالعين، ربما حرصًا وتأكيدًا لرغبة كامنة لضمان استمرار الحياة على النحو المأمول بلا منغصات، وأنصاف الأكابر أو مشاريع الأكابر الجدد والذين سوف يحصلون على مراكز هامة فى مستقبل الأيام - بحسابات ناس درب الثلاثين - مفاتيح كوالين سحرية، بفعلها تنفتح سكك المستقبل شبه الآمن لمواصلة الحياة، هى سنة الحياة على أى حال فى نظر كبار السن من سكان دربنا الكائن فى المناطق العشوائية التى تحيط بالمدينة الأصلية من كل نواحيها ما عدا الناحية المفتوحة على صحراء مترامية الأطراف، واستخدام الألقاب مع أهل المدينة خبرة مكتسبة من تجارب مسبقة لآباء وأجداد لنا، أسهموا جميعًا وبدرجات متفاوتة فى تأسيس «درب الثلاثين» ليسيّروا أحوالهم، والقدامى من أهالى الدرب حدثونا بزهو عن اكتشافاتهم المسبقة لخدعة استخدام الألقاب الرسمية لمن لم يحصلوا عليها أو يفكروا حتى فى نيلها، «الباشا» مثلاً كلمة تقال لطفل مدلل أو لأمين شرطة أو لصاحب وظيفة متواضعة أو حتى صبى جزار من باب التملق ليقلل الدهون فى قطعة اللحم شفقة، وهى تقال أيضًا على لسان من يطلب تسليك أموره فى أى مصلحة حكومية فى موضوع معلق يحتاج حلّه لتأشيرة موظف، أو تسليك المجارى الخاصة بالقبر الذى يسكنه أو يحتله بواسطة سباك يملك عدة التسليك ويحسب فى دماغه طوال الوقت المبلغ المطلوب الذى يمكن أن يطالب به واضعًا فى اعتباره غلو الأسعار فى كل شىء، وأنه سلك مجارى مقبرة فى نهاية الأمر لساكن ينتمى

للتعساء القدامى فى درب الثلاثين قبل أن يتألق ويتجمل ويصير مأوى لأنصاف أكابر نالوا من التعليم حظهم الأوفر، شأنهم شأن سكان المدينة الأصلية التى يعيشون فى أطرافها أو مدافنها أو هامشها، آلاف وألاف المواقف التى يصعب حصرها بالعقل البشرى أو الكمبيوتر المبرمج لحل لغز كلمة «باشا» التى تقال فى مثل هذه الحالة لسباك مثلاً، لأنها ببساطة فقدت معناها وصارت وصفًا يستحيل تفسيره أو تصديقه، ولو حاولنا أن نصل إلى دلالة الكلمة الأصلية فسوف نتوه ويتأكد لنا أن الموضوع من أساسه مربك ومحير، ويلزم على العقل أن يتناساه أو يتجاهله ليواصل الحياة بأمان، لأن التدقيق العلمى يقف أحيانًا سدًا حائلاً بيننا وبين استخدام الألقاب كما كانت فى أصلها، فإنه من المستحيل مثلاً أن نصدق أن كل باشا فى الزمان حصل هو أو واحد من أجداده على لقب الباشوية من أيام الهيمنة التركية على بلاد حكموها أيام القدرة وزهو القوة، لكنها كما ترون صارت منطوقة بشكل متواتر وبإلحاح على الأدمغة الصاحية فى «ساحة درب الثلاثين» وكأنه لا بد من استخدام مثل هذه الألقاب مع بعض أو مع كل الكيانات الحية فى المدينة الأصلية ما داموا يعيشون فى هامشها أو ينعمون بحمايتها، برغم أن المدينة صارت عتيقة وغير قادرة حتى على حماية سكانها من الأوبئة والجهل والبطالة والعنوسة ومشكلات سكان مقابرها من الأحياء الذين اندسوا وسط ناس «درب الثلاثين» لضيق ذات اليد، ويلزم أن يتعامل أمثالنا معهم بحذر وبلا خجل فى المنتديات، ويحق لنا أن نتباهى بأننا سكان

العشوائيات وأحفاد من أسسوا الدرب الذى يأويهم، وقد يحق لأى نفر منهم أن يقول لنا من باب الغل إن الموازين اختلت أو انقلبت رأسًا على عقب، لكننا فى درب الثلاثين لا نبالى بمثل هذه المعايرات، لقد علمتنا الأيام أن من يملك قرشًا يساوى قرشًا، ومن يملك دولارًا يساوى دولارًا، ومن يملك الملايين يساوى مثل هذه الملايين من أى عملة، ناهيكم عن المليارات التى نقرأ عنها أو نسمع فنندهش، واثقين أن الحياة تساوى عناء العد المتواصل للمليارات لمن يتمكن من امتلاكها، نرجع لحكاية الألقاب ومن لا يستحقونها فى المدينة أو «درب الثلاثين» المدفون على حد سواء، والتى ناقشناها فى صحوة المنام بعد أن عرّفنا متعالم «أحول العينين» بالكثير والكثير عن لقب «الباشا» وأصله وفصله:

ـ كلمة «باشا» أصلها تركى، وستعيدنا بالقطع لزمن يلزم أن نعرف بعض تفاصيله لتذكرنا أو تدعونا للتفكير فى موضوع ذلك «الباشا» ساكن القصر فى «استانبول» والذى حكم منطقة براح من موقعه الكائن فى آسيا الصغرى وشرق البحر الأبيض المتوسط وأوربا فى عصرها الوسيط، كانت جبالاً وتلالاً ووديانًا لا يحدها حد، وآلت إليه باعتباره خليفة للمسلمين فى الأرض على وجه الخصوص، خلافة لم يعترض عليها أحد من هؤلاء الودعاء المحكومين أيامها فى ذلك البراح وذلك الزمان، وما هو الفرق بين الباشا فى استنبول الذى تحول بقوة السلاح لخليفة فى أرض المولى جل جلاله أو خليفة لنبيه فى قبره؟ الدلالة برغم البون الشاسع شغلت عقول من فكروا بألف تفسير مقلق فى مسألة

حرجة شديدة الحساسية، لكنها الأقدار أو القسمة والنصيب أو التاريخ المروى أو إرادة تجميد التاريخ المسنودة على قدرات عفى عليها الزمن لناس كانوا فى السابق حماة مناطقهم ثم تكاسلوا وصاروا فى أشد الحاجة لمثل هذه الحماية، ولعلهم شكروا الحماة الجدد أو تغاضوا عن تخاذلهم وضعفهم فى أزمنة التهالك التى حولتهم بالنسبة للبلدان الراقية فى أوروبا إلى «رجل مريض» يلزم إسعافه والقضاء عليه ثم وراثته، كانت المسألة بالقطع مغرية لهم بكل المعايير «فالرجل المريض متهالك ومالك ومستباح».

طبّل المجتمعون فى «ساحة درب الثلاثين» على بطونهم زهوًا بما قاله من جند نفسه لدراسة وفحص عشرات الكتب فى السياسة والتاريخ والاجتماع ليخلص لنتيجة تظاهروا بأنها غير مسبوقة لتشجيعه ليواصل البحث، لكن أحد تلاميذه قام بعد أن تكلم الرجل وجلس مزهوًا بعلمه ليطلب التعقيب قائلاً بتهكم:

- كلام سيادتك مرسل وغير مسنود على حقائق علمية وهو أشبه بالحتمية التاريخية أو التحدى والاستجابة التى قتلت بحثًا، فبعد الغفلة الممدودة لهؤلاء الذين سبقونا وعاشوا بزهو يستحقونه لاجتهاداتهم المتواصلة، فلا يحق لسيادتك أن تنسى أنهم سبقوا العالم وصاروا أشباه حكام له، ونحن من سلالتهم بالقطع كما تعرف حتى إذا تحولنا لسكان مدافن، لكننا سوف نصعد، والغفلة بعد الطلوع فى الأزمنة الغابرة تسمح لمن صاروا أشباه أتباع أن يتحركوا خطوات أو حتى خطوة للأمام، والدنيا مصالح كما تعرفون

ولا يمكن أن نتصور أن شكاياتنا من سوء أحوال العالم فى زماننا سوف تطول أكثر، هى رؤية متفائلة على أى الحالات لكنها تحتاج للعزم والوعى والإرادة، ومن ينظر إلى الوراء يكتشف أننا فى درب الثلاثين لم نتشكل بواقعنا المتميز من فراغ، لقد كابدتم وكابدنا لنحتفظ بريادتنا فى ركن متواضع مجاور لمدينة لها تاريخ مبهر، وقد عفى عليها الزمن فكان لا بد لنا من طلوع جديد ولو على شكل «درب» مجاور للمدينة القديمة ومفتوح وعيه عليها بحثًا عن مهرب أو مخرج.

تنحنح رجل وقور التقاطيع قبل أن يبارك اجتهاد المجتهد فى بحثه عن الجذور وإن كان قد عاتبه بلهجة رقيقة محرضة أكثر منها رافضة لأسلوبه فى انتقاده لأستاذه قائلاً:

ـ أشكرك يا ولدى لأنك أقنعتنا بأننا نمارس أرقى أنواع الديمقراطية، كما يقولون فى التلفاز الملون ويكتبون فى الصحف الصفراء والخضراء والحمراء والبيضاء بحماس لا يحده حد، لكن الواقع كما ترى يتبدل ويتردى من حولنا لحد الخنق، ليس لنا مخرج أو مفر أو مهرب إلا أن نبدأ فى دربنا المتواضع أولى الخطوات، ما قولكم فى أن نعود مرة أخرى إلى موضوعنا الأصلى؟ الألقاب وأصولها.

كان الرجل من الحنكة والدربة إلى الحد الذى جعل أصوات كل الحاضرين تؤيده رغبة فى الفرار من المسائل التاريخية الشائكة التى لا يجوز أن يناقشها غير المتخصص، كان الواقع هو الهدف

والغاية، ولعله فكر ولم ينطق بعبارة حفظها عن ظهر قلب فى شبابه الغض مخافة أن يتهمه البعض بما يسمونه فى هذا الزمن «الانتهازية» ردًا على مقولته فى اجتماع مسبق وهو يعايرهم أو يتباهى عليهم ويبرر لهم ما صار إليه حاله «الغاية تبرر الوسيلة» وبرغم أنه لم يكن يعرف فى السابق غايته ولا يمكن فى ذات الوقت أن يذكر لهم أساليبه بشكل مؤكد أو وسائله التى استفاد منها للطلوع، وكيف أن حاله صار أفضل منهم مئات المرات وعلى كل المستويات، شأنه شأن بعض سكان نفس الدرب، إلا أنهم سكتوا وتبادلوا النظرات، همهموا استحسانًا لفكرته التى طرحها وقرروا أن يعيدوا على أنفسهم السؤال الخاص بالألقاب وأصولها، قام رجل طويل القامة ونحيل إلى حد مؤسف ليعلن عن وجوده بصوته الغليظ الذى لا يتناسب مع وصفه المعلن بأنه عود قصب:

- عندى سؤال يحيرنى، إذا كنا عرفنا أو حتى لم نعرف أصل كلمة الباشا، فهل يحق لى أن أسأل عن معنى كلمة أفندى التى ننطق بها فى مناسبات متكررة؟ وشكرًا.

جلس عود القصب الممصوص كما قال غالبية الحاضرين بصوت مسموع وصل لكل الآذان، بما فيها بالقطع أذنين مستديرتين واسعتين يعتديان على الخدين النحيلين من فرط اتساعهما، قام شاب نحيل وطويل القامة وله نفس تقاطيع الرجل ليفرض على كل من كانوا فى المكان صمتًا مخزيًا قبل أن يقول بتباهٍ وثقة:

- يشرفنى أن أكون حاضرًا «ساحة الدرب» فى هذه المناسبة، لأعلن لكم إننى أتشرف بأن أكون واحدًا من أبناء عود القصب الممصوص كما كنتم تتندرون بأصواتكم التى تجلب الصمم لولا أننا نملك آذانًا محصنة وقادرة على تفويت الكلام الذى لا يرضينا بيسر، نسمع من الأذن اليمنى مثلاً ونخرج ما لا يرضينا من الأذن اليسرى، لكننى أتحدى أن يجيب أى واحد من علمائكم على سؤال السيد الوالد الذى صرف علىّ وعلى إخوتى دم قلبه، لنحصل على شهادات عليا وننال درجات الماجستير والدكتوراه، هل يعرف أحدكم أصل كلمة «أفندى» يا حضرات السيدات وحضرات السادة؟

زغردت من طرف الساحة امرأة لتعبر عن إعجابها بعود القصب غير الممصوص الذى أسكت الكل، كان من الجلى أنها أمه وقد وقفت بطولها الفارع ونحولها المذهل وبدأت تصفق وكل النسوة الجالسات فى الناحية اليمنى متجاورات كما يتطلب النظام الذى خصص نصفها الأيمن للنساء ونصفها الأيسر للرجال، صحيح أن غالبية الاجتماعات يديرها ويتحدث فيها رجال الدرب فى ساحتهم، لكن النساء يحضرن أحيانًا كشهود أحياء، وقد لا تفكر أى واحدة منهن فى الكلام وسط الزحام ربما أدبًا أو تعففًا أو قلة علم أو حتى سخرية صامتة وغير معلنة، لكن تلك المرأة فارعة الطول مذهلة النحول كفت عن التصفيق فكفت النسوة فى نفس الوقت، وسمعها الجميع تقول بصوتها الجهورى الغليظ المتباهى:

- قل لهم يا مصطفى وارفع رأس أمك وأخبر بخاطر أبيك، قل لهم وفرّح قلوبنا.

وتأدبًا كان مصطفى ينقل نظراته بين أمه الواقفة ما تزال ووالده الواقف بجواره يهز رأسه استحسانًا قبل أن ينطق مصطفى، لعله كان واثقًا من قدرة ابنه على إقناع الجميع، وإشفاقًا على أمه وأبيه أشار لهما بالجلوس قبل أن يتكلم فجلسا ليتسمعا مثل كل من كانوا فى الساحة كلماته المختصرة الواثقة والمفيدة:

- كلمة «أفندى» يا سادة أصلها يونانى لكنها انتقلت لتركيا، ودخلت قاموس الكلمات التركية، والمعنى الحرفى للكلمة هو «السيد» التى تكتبونها فى طلباتكم وعرضحالاتكم من باب التوقير والاحترام، ولقد شاعت هذه الكلمة فى البلدان التى حكمها السلطان العثمانى مثلما شاعت فى مصركم المحروسة، لكن العجيب أنها ما تزال منطوقة ومكتوبة مثل كلمة «باشا» رغم إلغائهما رسميًا، وشكرًا.

قال كلمة وشكرًا وجلس فنال التصفيق من الناحيتين بتحريض الأم والأب، لأنهما وقفا يصفقان ويحفزان الجميع على التصفيق لمصطفى الذى لم يجد مهربًا من الوقوف والانحناء تواضعًا وتقديرًا للجميع، وكان التصفيق يتوالى ومصطفى حائر بين الرغبة فى القعود ومواصلة الانحناء الشاكر كأى مطرب أو مطربة لفتت أنظار من حضروا حفلاً للسماع وشعروا بالإعجاب والمتعة.

لكن الأمر انتهى عندما خفت حدة التصفيق على مهل، ولم يبق غير الأم والأب النحيلين الذين شعرا بالخجل قطعًا فجلسا فى نفس الوقت، وكانت أصداء كلمات مصطفى ما تزال تطن فى الآذان، لتكشف للناس فى «درب الثلاثين» أن العلم بحره واسع وغويط، وأن سلالتهم سوف تصعد بالقطع فى المستقبل القريب.

***

ولكم كان يتبدى لى أن البوح خلاص، البوح المنطوق المباشر أو غير المباشر، الظاهر أو المخفى حتى ولو كان مسطورًا فى أوراق تتوارى أو يتم تمزيقها بغرض عدم إطلاع أى كائن حى عليها، البوح خلاص من فكرة الموت المجانى بإرادة الفرار من سخف الحياة وانقلاب موازينها، لعله فى مثل هذه الحالات على وجه التحديد يعكس إرادة الفرار بالموت ويحولها لرغبة مخفية فى البقاء لتوصيل رسالة ساكنة فى داخل الداخل لمن يهمه الأمر أو حتى لا يهمه، لكنها تتطلب التخفف منها حتى ولو لم يكن هناك أمل فى الوصول إليها لكونها مخفية بفعل فاعلها وإرادته.

سوف أحدثكم عن عادة سنوية مفتعلة يسميها أهالى درب الثلاثين عيدًا، وقد يتبدى لمن يشهده ويراه أنه بالفعل عيد وكل بيوت الدرب وحواريه ودخانيقه مزينة بالبالونات الملونة وأشباه الميادين تتألق بالأضواء قبل نهاية العام القمرى بخمس ليال وأربعة أيام، والأطفال بثيابهم الجديدة يرمحون فى حارات الدرب والهامش ويتصايحون فى ميادين المدينة، ولأننى لسوء الحظ من

سكان الهامش الساكت كنت أرى الآباء وأشهد اجتماعاتهم منذ ربع قرن على وجه التحديد قبل أن يتمكنوا من الهيمنة على مقدراتهم فى دربهم وهامش المدينة الذى أسكنه غصبًا عنى كحل وحيد بعد أن ضيقت الحياة عمن يعترضون وينتقدون ولو كانوا سلالتها، فرطت فيهم بشكل غير معلن أو مباشر للغرباء من أهالى درب الثلاثين الذين لم يحافظوا على حرمة مدينتنا التى سامحتهم فى السابق وسمحت لآبائهم أن يتسللوا ويسكنوا شبه نصف دائرة أو مربعًا ناقصًا لضلع حولها كان مزارع متناثرة ومهملة وصحارى تبدو بلا مالك لجأ إليه الغرباء الجاهزون لتأدية كل أشكال الخدمات مقابل لقمة العيش والتصازيح التى يحصل الأنفار عليها لتحويط مساحات متفاوتة تسع عشة أو مكانًا تنصب فى بؤرته خيمة أو حتى مساحة أكبر تصلح فى مستقبل الأيام لتكون بيتًا أو حتى عمارة، كانت عشوائية بدت لأجدادنا القدامى بلا خطر، ويبدو أن بعض الأبناء والأحفاد المتيسرين الذين ننتسب إليهم ما زالوا فى غيبوبة ولا يشعرون بمخاطر ما ينسج حولنا وحولهم من خيوط تبدو هشة كخيوط العنكبوت وإن كانت فولاذية ومحكمة وقادرة على إزهاق الأرواح، هى هواجس مشحونة فى أم رأسى أو هى حقائق أستشعر مخاطرها لأنكم تعرفون وتفكرون فى حلول يلزم أن نمشى فى سكتها معًا، أو تخرجوننى من أوهامى وتسكوننى عنبرًا فى مستشفى لأمراض عقلية أو نفسية يكون فيه خلاصى فأريحكم من أوهامى وأرتاح، ولأننى قلت لكم منذ البداية إن البوح خلاص فسامحونى على تلك الثرثرة المفتوحة أو البوح سعيًا للوصول إلى حل أو مخرج يكون فيه خلاصنا.

اعتاد أهالى درب الثلاثين ومن يتعاملون معهم قبل نهاية كل عام قمرى بخمسة أيام وبشكل متكرر على إجراء تلك المسابقة السنوية التى حدثتكم عنها سعيًا منهم لإشعاة الهبجة فى قلوبهم أو زرع البسمات على وجوه متجهمة، حالة غير مسبوقة ومبتكرة قد تكون لها علاقة تحتية بليلة رأس السنة الميلادية التى يسعى فيها أسوياء العالم لتوديع العام المنصرم وبداية عام جديد وبابا «نوبل» بهداياه المتنوعة ماثل فى أخيلة الصغار، والتحرر الحالم نصف التائه يتجلى فى عقول الشباب المبسوط أو السكران، ورغبة كبار السن فى الخلاص من هموم الدنيا بسلام يبدو لمن يراهم سكينة راضية مع صلواتهم التى تطلب الغفران.

كان درب الثلاثين مختلفًا فى اختياره لكيفية الاحتفال بنهاية العام القمرى، كانت احتفالياتهم السنوية المتتابعة تهدف للتحلل من كل ما يستر المخفى بغرض توليد البهجة على المستوى النفسى، نوع من تعرية السلوكيات باعترافات معلنة بما اقترفه أى متسابق يبوح لسكان الهامش بأنه كان أكثر من غيره قدرة على المراوغة والخداع أو الصعود غير المبرر بالاحتيال على ذوى النوايا الحسنة ممن يتعايشون مع واقعهم المتردى بقيم ثابتة بدعوى الاستقامة وتجنب الخطايا، مسابقة مفتوحة لمن يشاء من أهل الدرب بغير تعويقات أو التزامات أكثر من الجسارة على البوح بارتكاب خطايا مستهجنة دونما حدود أو موانع، حالة معلنة وشبه مفضوحة لمن

يرغب فى إظهار براعته باعترافات مباشرة، ملفقة أو مسنودة على شهادات أحياء من أهاليهم أو هامش المدينة، لم يكن هناك موانع من الاستعانة بأى مستندات تؤكد ادعاءاتهم لأن مسابقتهم كانت تهدف إلى كشف وضاعة سلوك المتسابق فى جوهرها، صار مأمولاً أو قل مطلوبًا ممن يحضرون المسابقة المفتوحة والممدودة لخمس ليال وأربعة أيام بالتمام والكمال أن يضحكوا المشاهدين سخرية ممن يقر ويعترف على الملأ بما ارتكبه من ملاعيب أو أكاذيب، والبارع البارع منهم هو من لا يضع حدودًا أو فواصل بين المسموح والممنوع بأى الحسابات، وحبذا لو ذكر لهم اسم من كان عرضة لخداعه أو كذبه المحبوك أو خياناته غير المتوقعة، ولأن قدامى سكان الدرب الذين أسسوه وضعوا دستوره باعتباره كيانًا مخطوفًا من الفراغ المحيط بالمدينة من ثلاث جهات، ولولا البحر ما ترددوا فى إكمال المربع شبه الدائرى الذى يحيط بمدينتنا الأصلية وعلى حسابها.

كانت المسابقة السنوية غير المكتوبة تعتمد أساسًا على أنهم علموا أبناءهم وأحفادهم كيفية التخلص من الخجل أو محاولات ستر عوراتهم المكشوفة أو إنكار السلوكيات غير المخفية التى تفوح رائحتها وتتحول إلى نماذج مفضوحة كما يقول الناس خارج زمام درب الثلاثين، وكم تجادل أكابر الدرب قبل الإعلان عن أول مسابقة جرت منذ ربع قرن فى أمور هامشية وأساسية عن توقيتات تلك المسابقة وشروط الاشتراك فيها وجوائزها المادية والمعنوية التى يحصل عليها من يستثير فيهم البهجة الحقيقية أو حتى

الزائفة، المهم هو تزويد الهيمنة على مسامع الكل والقدرة على جذب العيون للمشاهدة، والأهم هو القدرة على استدرار الضحكات والقهقهات ولو من باب المجاملة، ولعل أخطر ما كان يخشاه المتسابق هو حدوث لحظات الصمت الفاتر أو الاحتجاجات المستهجنة التى توحى بأن حيلته مكشوفة مثل النكات القديمة السمجة التى باخت من كثرة ترديدها، ولأنهم فى نهاية الأمر يعيشون جوار مدينة تهوى توليد وترديد النكات والضحك عليها مثلما يحدث فى هامشها، ولأن خفة الظل موهبة غير قابلة للنقل بشكل آلى مثل البضائع المهربة التى تباع وتشترى فى السوق السوداء، وخفة الظل ميراث لا يمكن تقليده بيسر لأن التقليد والترديد فى كل الحالات يختلف عن الأصل بنسب متفاوتة، فربما استطاع سكان الدرب القدامى أن يدركوا الحدود والفواصل بينهم كوافدين غرباء يحاولون أن يتعايشوا مع أهل المدينة الأصلية لأنهم جاءوا وعاشوا فى العراء داخل خيام فقيرة إلى أبعد الحدود أو دخانيق وسراديب تحتية شبه مخفية قبل الحصول على تراخيص البقاء لأنهم فى ذلك الزمن كانوا يعرفون أنهم أتباع وخدم لسادة، وبمرور السنوات تمكنوا من توفير ما أتاح لهم أن يبتنوا بيوتًا متواضعة ومتباعدة عن المدينة فى البدايات بتوفير كل ما يمكن توفيره من أجورهم فى الحرف والمهن المتواضعة وخدمة البيوت وناسها من صدأ أسنانهم أو بخلهم الشديد كما كان يقول بعضهم ساخرًا من آبائهم وأجدادهم رواد الدرب القدامى، كانت بيوتًا متواضعة فى البدايات لكنها تطورت وتعدلت وصارت تتشابه ولو

من بعيد مع بيوت يسكنها فقراء المدينة وكل من هم أقل من متوسطى الحال فيها وقد صاروا بفعل المستوى المتقارب هامشًا مخلوطًا بسكان الدرب الذى اتسعت مساحته خلال عدة عقود، والمدينة القديمة التى قيل إن تأسيسها كان مسطورًا فى كتب التاريخ والبرديات منذ آلاف السنين تحتفظ بنفس أنماط البناء وربما نفس المواد، تتبدل فى أطرها الخارجية لكنها تتشابه فى محتواها والأغراض التى بنيت لتفى بها أو تؤديها للقاطنين فيها جيلاً فى إثر جيل، وربما تمكن سكان الدرب من تقليد الأصلاء فى ثيابهم الملبوسة أو أطعمتهم المألوفة لتسد جوع البطون، ولأن مدارس المدينة وجامعاتها فتحت أبوابها واستقبلت أبناء وأحفاد سكان الدرب والهامش دون تفرقة فقد صاروا جميعًا من تلاميذها، ينجحون فيواصلون دراساتهم أو يفشلون فيتحولون إلى أصحاب مشاريع خدمية صغيرة مثل دكاكين البقالة أو المطاعم أو المقاهى أو صبية فى ورش أو حرف لم يترددوا فى القيام بها من أجل لقمة العيش كما كانوا يقولون، عربجية وجزمجية وطباخين وسفرجية أو بوابين وتجار خردة، ترزية ومكوجية وعتالين، صحيح أن بعضهم صعد نجمه لأسباب مخفية فجعلت سكان الهامش يتشككون ويشيعون أنهم يعملون فى جلب الممنوعات وترويجها للتربح منها، مخدرات أو مشروبات روحية مضروبة أو أسماك ودواجن انتهت صلاحيتها عن طريق عمال السفن العابرة، وشباب الهامش يلاحظ أن أهالى الدرب يحاورونهم بعبارات غامضة ومخلوطة بإشارات صارت متداولة ومفهومة، وكانوا يفلحون فى مبادلتهم بمنتجات

دكاكينهم أو ببعض ما يتاح لهم من منتجات المدينة، ربما منسوجات أو طرابيش أو عباءات وعمامات وجلابيب، وربما وصل الأمر إلى قطع أثرية كانت مدفونة فى الصحراء المحيطة بالمدينة، جعارين وتماثيل صغيرة لآلهة أو حتى برديات مقلدة أو أصلية لم ينتبه لوجودها خبراء الآثار بمتاحفها، والعابرون بسفنهم يحصلون عليها مقابل عملات أجنبية متنوعة صار لها سوق سوداء فى غفلة منا ومن سكان المدينة، فهل تواطأ من عينتهم حكومة المدينة الأصلية حراسًا لحدودها فى البر والبحر؟ ولأن بحرها صار مكشوفًا ويحتاج لحماية لتحجيم أنشطة الغرباء فقد كان من الواجب أن يستعينوا بأهل الهامش وهم من سلالة المدينة الأصلاء برغم الإبعاد بقصد أو بغير قصد لكنهم لم يفعلوا، وربما كان الجيل الجديد من أبناء المدينة هو الذى استشعر القلق وباح به لنا لأن من كانوا من الأتباع صاروا شركاء يتزاحمون معهم فى كل شىء ويحرمونهم أحيانًا من الحصول على الوظائف أو المساكن القريبة من أماكن أعمالهم، وجدوا أنفسهم بمرور الأيام يسعون للسكنى فى بيوت الهامش ثم بيوت درب الثلاثين بعد أن ازدحم هامشنا المشترك الذى استخدموه، وكانوا يدفعون المبالغ المطلوبة لأكابر الدرب مبالغ كانت فى بداياتها أقل من المطلوب للحصول على مساكن المدينة، لكن الأمور بمرور الأيام تساوت وصار الهامش ملتحمًا بالدرب والمدينة محاصرة من ثلاث زوايا، ولولا البحر المفتوح ما تمكن شباب المدينة من الحلم فى أى مخرج أو حل لمستقبلهم، وصار شأنهم شأننا ونحن هامش مدينة كانوا ينتمون

إليها مثلنا لكنها أزاحتهم بشكل غير مباشر أو طردتهم ليندمجوا معنا فى البداية ثم مع ناس الدرب بمرور الأيام.

كان شباب المدينة الأصلية يدركون من خلال قراءاتهم لتاريخها وناسهم القدامى أنهم دخلوا مأزقًا يستلزم الحذر بعدما تزايد سكان الدرب بوسط المدينة وجلسوا على مقاعد رؤساء مجالس الإدارات ووكلاء الوزارات وتملكوا مصانع باعها من كانوا يهيمنون عليها رغم أنها كانت تحقق أرباحًا، ولا أحد يدرى تفاصيل تلك الصفقات أو السراديب التحتية والعمولات المخفية التى لا بد أنها دخلت جيوب وسطاء وسماسرة غرباء، لكن المحصلة النهائية كانت مجموعات من النكات الممرورة نتداولها مع شباب المدينة من باب التنفيس عما يجيش فى صدورهم من مواجع، يضحكون ونضحك عليها ولكنه «ضك كالبكا» كما قال المتنبى فى سالف الأزمان، غير أن أصحاب درب الثلاثين كما كان يطلق عليهم فى السابق كانوا يتبادلون النظرات الشامتة والواثقة بأن ما جرى أصبح حقائق يستحيل أن تتبدل لأن العالم صار محكومًا بمن يملك القدرة على امتلاك مقدراته، وسكان هامشنا يسكتون مجاملة أو مسايرة بغير قناعة تخفيفًا على ذواتهم وخوفًا من انفلات عيارهم، كانت النكات المبتكرة مخرجًا وحلاً بديلاً عن محاولات فتح ملفات كل ما يحيطنا من مفاسد، شباب المدينة وهوامشها يتبادلونها ويقهقهون ويتأكد لأكابر الدرب أن ضحكنا ونكاتنا مخرج لنا وحل قادر على تخفيف المواجع وإزاحتها مثل البوح تمامًا.

وكانت المسألة بالنسبة لمن خططوا للهيمنة على مقدراتنا ومقدرات المدينة الأصلية سببًا فى البحث عن مخرج لهم، وكانوا يعرفون بعقلانية خالصة أنهم لن يتمكنوا من المشاركة فى توليف أو تأليف النكات أو الضحك عليها من قلوبهم مثلنا، وربما بسبب خصالهم الموروثة فكروا فى حل حتى ولو كان شكلانيًا محضًا، ولابد أن حالة من القلق كانت وراء فكرة إقامة تلك المسابقة التى اعتبروها عيدًا سنويًا مصنوعًا يرد على خبرات من يملكون القدرة على الضحك والإضحاك أو البوح المباشر أو غير المباشر، لم تكن المسألة بالنسبة لهم خفة دم لا يملكونها فى مواجهة ثقل دمهم أو أصالة مؤكدة فى مواجهة خسة خصوم حسبما كان شبابنا فى المدينة وهامشها يستشعرون، المسألة كانت أبعد من ذلك بكثير والمخفى فيها أخطر من المعلن.

نرجع لدرب الثلاثين لنتعرف على مأزقهم فى إعداد الترتيبات لعيدهم السنوى وكيف تناقشوا بوعى شكلانى محض وتوصلوا لتفاصيل المسابقة وموعدها ومكافآتها فى ليلة مشهودة منذ ربع قرن بحسب ما هو مسجل فى مستنداتهم المحفوظة ومحاضر جلساتهم المتتالية، سهروا الليل بطوله حتى بزوغ ضوء الشمس يتسمعون التسجيلات التى اختاروا أنسبها وأفضلها لتكون دستورًا يلزم أن يراعيه الكل فى عيدهم السنوى بشرط ألا يتخلف أحد، الدرب برجاله وحريمه من كبار السن والشباب والبنات والصبية والأطفال على صدور أمهاتهم أو فوق حجورهن يتسمعون أو يتحاورون، والكتبة يسجلون ما يمليه عليهم رئيس الجلسة وهو

أكبرهم سنًا، كان أكثر ما حيرهم وحير الرجل معهم هو نوع وقيمة المكافآت وعددها، لكنهم وصلوا لحلول توافقوا عليها بعد مكابدات، واتفقوا أن المكافأة ستكون مجزية لأبعد الحدود بشرط نجاح من يدخلها بحصوله على أعلى تقدير لأى صفة ذميمة لمن يفوز مثل: الأخبث، الأوطى، المتأفق، المتدنى، المنحط، الخائن، الظالم، الأغبى، اللص، الغدار، الفشار، الغشاش، الهباش، النتاش، الكذاب، الخواف، الجبان، الوضيع، الخليع، الخطاف، المراوغ، البخيل، المرابى.. إلخ وما يستجد من صفات توافق عليها لجان التحكيم التى تسترشد برأى جمهور الحاضرين خلال أربع أيام وخمسة ليال متواصلة قبل بداية السنة القمرية الجديدة فى ساحة الدرب الرئيسية.

فكروا فى المستقبل والتسميات بخلاف الجائزة السنوية فى المفاصل الزمنية لتسمية العيد الخامس والعشرين أو الخمسين والمئوى وقرروا أن تكون جوائزها أكبر وبنفس التسميات المألوفة «برونزية وفضية وذهبية وماسية» أو حسب ما يتفقون عليه وقد حافظوا على إجراء المسابقة السنوية منذ اكتمال الدرب واعتماده على نفسه مستقلاً عن المدينة، وأضافوا إليه هامشنا وتعايشوا مع حقيقة أنهم كانوا أتباعًا فى البدايات حتى وسع المولى جل جلاله أملاكهم وزود أرزاقهم، ولأن الدرب كان منذ ما يزيد عن ربع القرن عشوائيًا لكنه صار حقيقة واقعة يستحيل إزاحتها أو التفكير فى الاستغناء عنها، ولولا ثقة سكان الدرب فى قدراتهم ما أعلنوا ضم الهامش إليهم وهو يتعايش فى كنفهم ويقوم سكانه بأعمال

متواضعة أحيانًا فيشاركونهم فى بعض الصفات ويقومون ببعض الأعمال المتواضعة مثل خدمة سكان المدينة، ووظائف وخدمات فى ورش أو دكاكين ومصانع صغيرة يملكها أهل الدرب فى المدينة التى هيمنوا عليها ويدفعون رواتب متدنية، صحيح أننا كنا نختزن فى قلوبنا ومشاعرنا مرارات ومواجع لأن موازين الزمن حولتنا إلى أتباع لمن شاركناهم نفس التاريخ والألقاب وعلاقات الدم، لكن مرور ربع قرن على ما يشبه الانفصال الجبرى جعلنا نفكر على نحو مغاير وبعضنا قال للبعض الآخر: وطننا حرمنا من حقوقنا وأجبرنا أن نكون أتباعًا نعيش فى هامشه المنسى بالغفلة أو بالقصد وليس لنا مخرج غير التكيت الذى هو نوع من البوح فى أيام القهر الذى هيمن عليه الأنصاف والأرباع والفرافيت.

***

رأيتنى فى المنام الممطوط أغتسل وأتطهر استعدادًا لصلاة عيد الأضحى، كنت فى المنام متشككًا أنه هناك عيد أضحى فى تلك الأيام لكننى كنت أغتسل وأتوضأ وأهيئ نفسى لتأدية فرض صلاة العيد بينما أرى شمس النهار فى منتصف السماء تمامًا بما يوحى بأن ظهيرة اليوم فاتت لتوها أو شارفت على الاقتراب، أتهيأ لسماع صوت المؤذن القوى المتميز الذى ينادينا بصوته المجلجل فى صحونا أو منامنا خمس مرات كل يوم من غير مكبر للصوت لينبهنا لمواعيد الصلاة، كنت واثقًا أنه مؤذن مظلوم فى حياته لأن صوته القوى الصافى واضح الحروف يستحق أن ينطلق من مكبر

صوت محترم كجهاز التلفاز أو الإذاعة أو حتى من مسجد الحسين بن على أو السيدة زينب رضى الله عنهما وأرضاهما بدلاً من تلك الزاوية المتواضعة الكائنة وسط المنطقة شبه العشوائية المعزولة التى نسكنها فى وسط المدينة، وفى البعيد من كل الزوايا كنت ألمح بنايات عالية وأتخيل ملامح أنصاف الأكابر أو الأكابر الغافين أو الغافلين عنا فأتخيل صورة من كان فى السابق يؤذن فى مالطة رغم عدم استجابة سكانها لندائه لكنه يواصل مكتفيًا بالقلة التى تستجيب وهم من غالبية ناس منطقتنا الودعاء وكأنما المساحات المسكونة حولنا من كافة النواحى لا تنشغل بدعواته وكأنه يؤذن لفقراء منطقتنا العشوائية وحدهم أو أن للآخرين لغة غير لغتنا، وكنت أتصور أن بناياتهم الشامخة التى تحاصر منطقتنا شبه العشوائية هى التى تتشابه مع مالطة التى لم تطأها قدماى أو فكرت مرة فى زيارتها لضيق ذات اليد وتقوم بدور بحر يحيط بجزيرة فقراء نعيش أو نتعايش فى جنباتها لرعاية عيالنا ولا يحق لنا الشكاية من أصحاب ذلك البحر القادر على اغتصاب حدودنا حتى لو رموا علينا مخلفاتهم، يتأكد لى فى الكابوس أن الدنيا حظوظ وأن وراء تلك القسمة غير العادلة حكمة تجل عن إدراك أمثالنا من البشر الساخطين أو الباحثين عن عدل مطلق لم يتحقق على سطح أرضنا الظالم أهلها وناسها فى الصحو أو فى المنام أبدًا، كأنه من الممنوع أن يعترض أى واحد منا على أنواع الغبن والأذى أو حتى عن عمل ردود أفعال متواضعة تشبه من حيث الشكل الاحتجاج على من يستبدون بنا مثلاً أو يستبيحون بيوتنا

بينما يعيشون حولنا ليضيقوا علينا الخناق يومًا فى إثر يوم، وكنا نعرف أن الكلام فى الفراغ أهون من فعل اليد القادرة على التغيير وأفعل من الخرس والكتمان فى القلوب بديلاً عن القول، وفى بعض حالات الصحو كنت أرانى مثله تمامًا على نحو غامض أؤذن فى مالطة التى صارت تخصنى وأراها وهى تحاصرنى وتحصرنى ولا يفصلها عنى غير فاصل وهمى، صحيح أن منطقتنا شبه العشوائية المعزولة فى بطن تلك المدينة كانت تتكلم نفس اللغة التى ينطقون بها أو يقرأونها وأن التواصل بيننا وبينهم كان ممكنًا لو فكروا فى الانشغال بمواجعنا وهمومنا، لكنهم كانوا يتجاهلوننا بأوامر صدرت لهم فى السابق من آبائهم ليتعاموا عنا بقصد، وعندما غامرنا بالذهاب إليهم عدة مرات لنحاورهم فى احتمال أن تصيبهم أضرار قد تفرزها جراثيم أو أوبئة محتملة تتخلق أو تتوالد فى البؤرة المهملة لو بقى الحال على ما هو عليه، لكنهم أبعدونا وأعادونا إلى حيث نعيش، وصرت مثل غيرى ممنوعًا بشكل غير رسمى ولكنه متعمد، لا أتمكن من الوصول لعقول المحكومين من ناسهم بفعل مجموعة الفعلة لأصير مثل مؤذننا المغبون الذى يتصامم الناس عن سماع صوته فى المحيط الذى يلتف حولنا ويضيق حدودنا لصالحه، وكنت أحيانًا أمنع نفسى من الاسترسال فى التفكير على هذا النحو حتى لا أصاب بالجنون أو تداهمنى سكتة قلبية مثل تلك التى دهمت الآلاف من الناس فى منطقتنا العشوائية المدفونة فى قلب المدينة وقد تدنت متوسطات أعمار سكاننا عن نصف متوسطات أعمار سكانهم هناك.

لعل الهم الأكبر الذى انشغل به هؤلاء الذين رحمهم المولى من شركائى فى منطقتنا هو سؤالهم المتكرر لذويهم قبل الموت عن المدافن الذى سوف يوسدون فيها أبدانهم، كلنا كنا نعرف أن المنطقة الضحلة التى تجمعنا كانت معزولة مهملة وغير محسوب لها حسابات، صحيح أنها فى البدايات تمددت وتوسعت ولملمت الآلاف وآلاف الآلاف، لكن أرضها ضاقت وصارت هشة ومعجونة بالنشع دومًا بسبب زحف المخلفات الظاهرة والمخفية من تلك المساحات المحيطة بها ودون مراعاة أو رادع أو حقوق جيران لهم شفعة، وكانت المحصلة فى نهاية الألفية الثانية مؤسفة ويصعب التنبؤ بها يمكن أن يصير إليه حالها فى مستقبل الأيام.

***

رأيت الناس فى الكابوس الناعم البدايات شبيه الحلم الممطوط يتحاورون فى مشكلة فرعية صارت تؤرق الكثيرين من سكان تلك المنطقة العشوائية ووصل الأمر إلى حد أنهم صاروا يتأففون ويعبرون عن سخطهم بجرأة لو انفتحت سيرة النهايات المحتومة بدفن الأبدان وسط رماة مشبع بمياه جوفية يتحول أمام العيون لطين طرى لا تجففه شمس الله الساطعة التى تكوى أجسامهم طوال أعمارهم فتتصبب أبدانهم بعرق الشقاء المالح الذى ينضاف إلى مخلفات المدينة التى تحاصرهم من كل الجوانب، بعضهم كان يسخر من المفارقة ما بين سخونة سطح الأرض وطرواة باطنها قائلين إن البنى آدم مخلوق من طين الأرض وإليها يعود ليرحمه الله

من ناره الأقوى آلاف المرات من نار شمسه، لكن المقارنة فى واقع الأمر كانت غير مبلوعة للناس، ربما لأن نار الشمس الحامية تتشابه ولو من بعيد مع الجحيم الذى خصصه المولى تبارك فى سماه للعاصين من عباده، لكن الطين لا يشبه الجنة الموعودة على أى نحو، كانت دعابة سخيفة ومتداولة سرت بيننا على أى الحالات، وكنا نقر ونعترف أنها حالة استسلام ناتج عن العجز حتى عن الحلم فى اختيار مدافن جافة تحمى الأبدان والأكفنة من وساخة الطين التى تسهم بالقطع فى غزو الأنوف بروائح الموت السارح فى كل الأنحاء يسرى فى الدروب والحوارى المسدودة والمنعطفات والأزقة على العكس مما يحدث هناك فى مدافن المدينة التى تحاصرنا بجدار وهمى عازل والتى ينعم فيها أمواتهم بجفاف الصحراء، عبثًا كنا نحاول استخدام تلك المقابر لكن أكابر المدينة والمسئولين عنها كانوا يطالبون برسوم باهظة لعبور النفر منا شوارعها للمشاركة فى مشهد للدفن لم تكن فى حوزة أغلبيتنا بالإضافة لتكاليف يتكبدها الراغب فى بناية أى مدفن تباع أرضه الغالية بالمتر المربع فى فراغ صحرائهم، وكانت المحصلة بالنسبة لسكان منطقتنا همًا خالصًا نتعايش فيه ومعه ويصعب الخلاص منه إلا بمعجزة أو الاستسلام التام للدفن فى الطين.

***

فى الكابوس البغيض رأيتنى مددًا على «درابة» الغسل أستشعر دفء الماء الذى ينصب على بدنى «بكوز» نحاس أعرفه تمامًا

وأعرف أنه كان يخص أمى رحمها المولى وكانت تستخدمه لسقايتى لو بحت لها بعطشى، وكثيرًا ما كانت تسألنى إن كنت أشعر بالعطش فأكتشف أننى بالفعل أرغب فى شرب ماء كوزها الرطب فأرتوى كما كان دفء الماء المصبوب من نفس الكوز على بدنى العريان ينعشنى عندما تصبه المرحومة أمى على رأسى وتدغدغنى بأصابعها الطرية والحنونة قبل أن تملأه مرة أخرى وتصبه على بدنى فى سنوات طفولتى المبكرة فأضحك وتضحك هى أكثر عندما أتعلق بها فتحتوينى فى حضنها الدافئ وتجفف بدنى المبلول بثوبها الجاف قبل استخدام المنشفة، لكننى فى الكابوس الممطوط لم أكن بقادر على الحركة أبدًا أو الضحك أو التنفس فى ذات الوقت، كل ما كنت أشعر به هو أننى قادر على سماع أصوات متداخلة أعجز عن التمييز بينها كلما زاد الصخب، أقول لروحى بينى وبين روحى إنه الموت وقد جاء فى موعده المكتوب بالقطع دون أن أحسب له أى حساب شأن كافة سكان المنطقة العشوائية الذين سبقونى بالرحيل ليرتاحوا من هموم الدنيا ولينعم الصالح منهم «بجنة عرضها عرض السماوات والأرض أعدت للمتقين» وأنا بالقطع منهم، كنت أتمنى لو سمعت صوت المؤذن ينادينا للصلاة فلربما يساعدنى صوته على الصحو مرة أخرى لكنه لم يفعل رغم أن الوقت بحساباتى طال وطال وبدنى الممدد فوق «درابة» الغسل مستكينًا ومستسلمًا لكفين خشنين لرجل لم أعرفه فى حياتى أبدًا لكن صوته لم يكن غريبًا عنى، كان يتنحنح قبل أن يأمر مساعده ليساعده برفع ساقى أو ذراعى أو

رأسى ليخلص من مهمة بدت له أصعب من كل المهمات التى أنجزها فى حياته مغسلاً لا يضمن لزبائنه الجنة، ولعله تهيأ لى أنه كان صوت مؤذننا وقد وظف نفسه مغسلاً ثم لحادًا تسكن يداه أبدان التعساء فى المدافعن الرطبة الموحلة، وعندما لفلفنى هو «بطاقات» الكفن سمح لهم بأن يحملونى إلى مدافننا الرطبة فحملونى، كنت أرى المدفن المفتوح أمامى مثل فم أفعى ضخم جاهز لابتلاعى، لكن الرجل لم يتركنى أواجه الرعب وحدى وصار يوصينى ويملينى كيف أرد على عزرائيل وأعوانه من ملائكة الموت عن يمينى وعن يسارى كلما سألونى ليتأكد لهم أيمانى فتأكد لى أنه هو بعينه المؤذن المغبون ساكن منطقتنا العشوائية.

***

فى الكابوس الممطوط والمتجهم كنت أشعر أن أنفى وفمى وخلايا جسمى نفسها كانت مكرهة على ابتلاع الطين الرطب من كافة الزوايا رغم أن ملائكة اليمين بشرونى بالجنة فشعرت بالنشوة للحظات خاطفة وتذكرت دغدغات أصابع أمى الحنونة وهى تحتوينى فى صدرها بعد الاستحمام بمائها الدافئ، لكن الفرحة لم تكتمل أبدًا لأن مكونات المدفن كانت تتداعى وتتداعى وتحاصرنى وتحصرنى وكأنها مكلفة بإزهاق الروح التى أزهقت منذ ساعات، ولو كان بإمكانى أن أصرخ ما ترددت، وبنصف الوعى أو ربعه أو هامشه الباقى كنت أسأل نفسى كيف يموت الإنسان فى اليوم الواحد مرتين؟

لا بد أن بقايا الخلايا الحية فى بدنى كانت تستعيد رغم ضراوة الكابوس الممطوط ما كان قد جرى لى فى السابق عندما كنت أنعم بالحياة وأتعايش رغم العسر مع مفردات الواقع الصعب، ولا بد أن الخلايا الحية الباقية فى الكابوس كانت تخصنى وتعرف أسرارى ومواجعى وتاريخى الذى انقضى وأسماء عيالى وزوجتى وخسائرى ومكاسبى وبعض أحلامى وأمنياتى المشروعة التى لم تتحقق أبدًا وتلك التى بدا لى أنها تحققت ولو بشكل جزئى كان يكفينى أيامها ويبعث فى القلب شيئًا من الفرح، صحيح أن أيام الفرح كانت قليلة لكنها كانت تكفينى على كل حال لمواصلة مشاويرى باعتبارى ساكنًا بالمربع العشوائى يستجيب لمشايخ المنطقة المهمشة عندما يؤكدون لنا «أن القناعة كنز لا يفنى».

كنت أفتقد ملامح زوجتى أم عيالى وصوتها المألوف خلال تلك الفترة الحرجة التى أوشكت أن انعزل خلالها تقريبًا عن الإحساس أو العجز التام عن الحركة بما أوحى لكل من شافونى بأن أجلى انقضى، أتحسس بالأذنين نبرات صوتها الملتاع بين الأصوات فلا أتسمعها، أتذكر أنها كانت قد اتفقت معى على شراء أرض لبناء مدفن جاف بين مدافن تلك المدينة التى تحاصرنا فتطمئننى فى كل مرة بأنها ستدبر أمورها على أحسن وجه إذا انقضى أجلى أو جاء يومى قبل يومها وتؤكد قائلة باقتضاب:

- ومن حر مالك أشترى لك وباسمك مقبرة صحراوية هناك أسألها أحيانًا عن كم المدخرات التى تمكنت من توفيرها خلال

السنوات الفائتة فتبتسم وتهز رأسها بما يفيد بعدم رغبتها فى البوح، من ناحيتى كنت أتقبل المسألة واثقًا أنها سوف تدبر أمرها وأمرى وتفاجئنى بأنها اشترت الأرض يومًا بمبالغ كانت بحساباتى واعترافاتها فروقًا بين ما كنت أدفعه لها مصاريف بيت وعيال فى مدارس وإيجار مسكن وأثمان ثياب لها ولنا وما أنفقته بالفعل:

- خيرك الكثير فى ذمتى ليوم الدين ومن آمنك لا تخونه فلا تحاسبنى، بينى وبينك ربنا المطلع على ما تخفى الصدور كانت هى بالنسبة لى مأمونة إلى حد أننى لم أفكر مرة فى أن أخفى عنها أى مبالغ أحصل عليها من عملى أو بدلات سهرى أو مكافآتى عن الأعمال الإضافية التى أجهد نفسى لإنجازها لتكفينا وتسترنا وتغطى مطالب الحياة وختامها بما يليق بنا، تظهر مودتها لى وتدعو مولانا الكريم بأن يزود أرزاقنا ويحنن علينا قلوب كل المسئولين فأفرح وأسر لها أن علاوة استثنائية سوف تضاف لمرتبى أول السنة المالية الجديدة، ألاحظ فرحة تقاطيعها الدقيقة وأقول لنفسى إنها وفية قطعًا وراضية بالمقسوم لها معى، أواصل حياتى مطمئنًا فى حضنها الدافئ وأمنى نفسى بأن يكون مأوى عندما ينتهى عمرى مدفنًا جافًا كسكان مدينتنا المحاطة بصحراء مترامية والتى نتعايش فى قلبها العشوائى مكرهين أو عاجزين بالفعل عن تبديل مساكننا شبه المدفونة ببطن المدينة الرطب والمشبع بكل أنواع النفايات والمخلفات دون أن يكون لنا حتى حق الحلم فى تبديلها أو تعديلها، وعزاؤنا حكمة تقول إن عرض الدنيا زائل وأن العبرة فى الختام المحتوم، ومحظوظ محظوظ من يقنع

بأقل القليل ويرضى به فيكون مصيره المؤكد هو نعيم الآخرة وخلود الروح وسط «جنات تجرى من تحتها الأنهار».

لكن ما جرى لى فى تلك الرحلة غير المتوقعة جعلنى أراجع حساباتى فى الوقت الضائع كما يقولون بينما كتل الطمى تحيط ببدنى وتكبس عليه وتنفذ من فتحتى الأذنين والعينين والأنف ذى المنخارين والفم أيضًا، أجاهد أن أتململ فلا أستطيع ويتأكد لى أننى بدأت مشوار التحلل أسرع مما كنت أتوقع فى أعتى كابوس صادفته فى حياتى، وصحيح أن عمرى الذى عشته كان مشحونًا بكل ألوان الكوابيس المتتابعة المكررة التى أعجز أحيانًا عن لملمة تفاصيلها أو بعض تفاصيلها فى أى صحوة فزع للفرار منها، لكن الصحو المفزوع نفسه كان مخرجًا ومهربًا بالنسبة لى أحيانًا، ربما لأننى كنت أتمكن من تحسس بدنى أو القدرة على تجفيف دمع العينين الباكيتين من قسوة ما شاهدت واستشعرت، لعل بقايا الخلايا الحية التى تخصنى فى الكابوس تأكدت أن العودة للحياة مستحيلة فاختارت السكون الكامل استسلامًا ممقوتًا بحساباتها هى نفسها، لكنه لم يكن لديها اختيارات بديلة بالقطع، وعلى نحو خاطف تشددت خلية حية واحدة واتخذت موقفًا مغايرًا فظلت صاحية ترقب وتحصى وتحاول أن تصل إلى موقع أفضل كى تتاح لها الفرصة من خلال عزمها المتواضع لعمل معجزة لا يتوقعها البدن كله وقة حاصرته من كل الجهات كتل الطين اللزج، ولا أدرى كيف تمكنت تلك الخلية الوحيدة من هزيمة الاستسلام الكامل أو كسر حالة السكون المقيت، وكانت المحصلة صحوة مفزوعة للبدن

المحبوس فى الكابوس الممطوط تعيد ربطه بالحياة وتنفض عنه علامات الموت ليعيش من أول وجديد، يفكر فى الخلاص من كل ما شافه من الجمود فى سكون بلا أمل فى الحركة أو القيام، يعود النبض للقلب وتصحو الذاكرة ويفيق الدماغ فأقوم وأتحرك لأؤكد لروحى أننى عدت للحياة مرة أخرى وتخلصت من الكوابيس المجانية مهللاً بفرح طاغ وصارخًا لنفسى ولمن يحيطوننى بأننى سأواصل الحياة مرة أخرى وأعيش.

***

فى المنام الوردى رأيتنى أميز ألوان الطيف والألوان المتداخلة بينها، آلاف الألوان تتجلى لى وأنا فوق ربوة مزروعة بنباتات نادرة ومألوفة وثمارها دانية القطوف، أسكن فوق مقعدى واثقًا أنه من الممكن أن أنال ما أبتغيه بأقل جهد متاح، تنتفى تلك المشاعر البغيضة التى كانت تداهمنى فى الكوابيس المتواترة التى كابدت من ضراوتها، وأسأل نفسى كيف نجوت وظللت صاحيًا لأشهد وجهًا مغايرًا للحياة يتأجج فيه الأمل العريض فى الصدور وأنسى مواجع قلبى وصماماته الصناعية المزروعة إلى حد أننى تشككت فى وجودها وكأنها لم تكن أبدًا، ارمح فى البراح المزروع بالخضرة بكل درجاتها وأتحول إلى نسمة بارعة فى النفاذ لكل الزوايا والأركان بمثل ما هى بارعة فى الصعوة إلى الفضاء الأعلى أو الغوص فى الأعماق السحيقة دونما هيبة أو قلق، تزيد دهشتى لأن سر هذا التحول كان بفعل خلية وحيدة معاندة، أسمع صوت المؤذن

ينادى للصلاة فأفرح لأنه نفس الصوت المألوف الذى لا بد أنه كان يتمكن من تجميع المؤمنين من كافة أنحاء المدينة البراح وقد توارت فيها الحدود بين ما كنا نحسبه منطقة عشوائية قديمة ومعزولة بتعسف مفتعل برغم كونها تقع فى قلب المدينة أو صرتها، أصعد لمسكنى فألتقى بعيالى وأرى فى عيونهم فرحة اللقاء بعد الغياب ويتأكد لى أننى غبت بالفعل زمنًا لا يستهان به، يتبدى لى أن أعمارهم تضاعفت على نحو لم أكن أتوقعه، لكنهم نفس عيالى وقد تخطوا مراحل الشباب وتحولوا إلى رجال ونساء مسئولين ولهم وجاهة اجتماعية ظاهرة، أفرح بهم وأوشك أن أطير حولهم قبل أن أسألهم عن أمهم فيطرقون برؤوسهم ويغلف الصمت تقاطيعهم، أتوه وأغير الموضوع وأسألهم عن أحوالهم فينفتحون ويتحدثون بتباهٍ عن معجزة خلية وحيدة خالدة تسببت فى صحوة قلب مدينة خاملة وإعادتها كما كانت فى البؤرة نظيفة وواعية بدورها الخلاق فأتعجب لأنهم عرفوا سرًا حسبته يخصنى وحدى وأتخيلنى روحًا من عالم غير عالمهم وزمنًا غير زمانهم تتجلى لها أحلام وردية لم تتحقق إلا بعد التضحية بالعمر نفسه.

***

كنت ألاعب الجهاز أول دور شطرنج وأشعر أنه يتباطأ بعد خسارة أى قطعة، يتباطأ حتى يشعرنى بالملل، كنت فى السابق قد لاعبت العشرات ممن يتباطأون فى اللعب لكننى كنت أملك الحق فى استعجالهم أو الاستشهاد بمن يتفرجون كى يشجعوه أو

يحرضوه على اللعب أو حتى يسخروا منه، وكنت فى كل الحالات أخرج من المأزق بفضل تلك اللغة المشتركة التى يتبادلها البشر ممن يتفرجون أو يلعبون أو سوف يلعبون، لكنه فى حالة الشطرنج لم يكن هناك لغة ولا خواطر ولا خجل ولا أحاسيس، كنت أواصل اللعب معه متحاملاً على نفسى وقائلاً لها فى نفس الوقت أنها مجرد لعبة بين مئات اللعبات التى يمكن تشغيلها على نفس الجهاز، سباقات سيارات وعجلات بخارية فى طرق وجبال وعرة وغابات ومباريات مصارعة حرة ودورات كروية وعبور غابات فيها وحوش ضارية وحيّات وصعود جبال أو الغوص فى محيطات ودخول متاهات تخطى حواجز مستحيلة، عشرات ومئات من الألعاب انشغل بها عيالى بمثل ما انشغل بها أصحابهم وجيرانهم، كأنها منافسات رياضية حقيقية أو مغامرات بشرية أو مباريات فعلية بينما كنت أراها محض ألاعيب لإزجاء الوقت ولم أكن متحمسًا لمعرفة قوانينها بمثل ما كانوا يتحمسون، ربما لأنها كانت بحساباتى لا تحتاج إلى ذكاء بقدر ما تحتاج إلى ذاكرة تحفظ الشفرة الخاصة بكل لعبة وأصابع مدربة على الحركة فوق المفاتيح بخفة لا أملكها، ولا بد أن العيال جاملونى بإضافة لعبة الشطرنج التى سمعوا منى فى السابق كلامًا كثيرًا يؤكد عشقى لها وبراعتى فى تحريك القطع لأحاصر ملك الخصوم أو أحسن الدفاع عن مليكى، كانوا يتأملوننى ويتبادلون النظرات وكأننى كائن من كوكب آخر يضع وقته الثمين بحسب ما كانوا يقولون فى لعبة وحيدة بينما هناك فى الدنيا مئات الألعاب المتاحة على الجهاز الذى امتلكوه

بعد إلحاح شديد لأشتريه لهم مؤكدين أنه وسيلة معاصرة يلزم أن تدخل كل بيت لتخزين المعلومات وحفظ الوثائق المكتوبة إضافة إلى إمكانياته غير المحدودة فى الاتصالات وتبادل المعلومات مع كل الناس فى أركان الكرة الأرضية، لم أكن أعترض على شىء مما يقولون لأننى كنت قد قرأت عن الجهاز وسمعت من الأصدقاء الذين ادخلوه بيوتهم كثيرًا من الحكايات التى تؤكد أهميته فى زمن العولمة وقد تحولت الكرة الأرضية بفضله إلى قرية صغيرة بحسب ما كانوا يؤكدون، لكنهم كانوا يضيفون أنه يتطلب بعض الحذر من أضراره ومخاطره ما لم يستخدم بوعى، كنت أجاريهم وأنتوى شراء الجهاز فى أول فرصة أمتلك فيها ثمنه، وقد حدث أن حصلت على مكافأة لم أكن أتوقعها فقلت لروحى «هو رزق العيال وقد بعثه الرزاق العليم من حيث لا تحتسب فاشتر الجهاز يا ولد».

كنت أراهم يتناوبون الجلوس أمام الجهاز وقد حضروا دورات متكررة دفعت تكاليفها بحسب ما كانوا يرغبون دون أى تردد، لعلنى لم أنشغل به فى البداية، لكنهم دفعونى لأن أتأملهم وهم يتبادلون الخبرات ويتجادلون بخفة، وعندما أضافوا لعبتى المفضلة لجهازهم طالبونى بأن ألاعبه فلعلنى أكسب وأثبت لنفسى ولهم أننى لم أنس خبراتى السابقة، قررت أن أدخل المغامرة، لكننى لاحظت أنه كلما خسر الجهاز قطعة تباطأ فى اللعب، لكنه لم يكن هناك بديل للصبر والتحامل على نفسى ومواصلة اللعب، وفى كل المرات التى أوشك على الفوز عليه لأبرهن لعيالى ولنفسى أننى ما زلت كما كنت لاعب شطرنج عارف بقوانين اللعبة وقادر على

الانتصار، لكن الجهاز كان يكايدنى بالقطع لأنه بحساباتى كلما أوشكت على هزيمته أو كانت هناك نقلتان باقيتان لفوزى فإطا بالصورة تتجمد تمامًا والقطع التى تخصنى لا تطاوعنى وتتأبى على الحركة، كان عيالى يحاولون بكل خبراتهم مع الجهاز تحريك الصورة لكنها كانت تظل ثابتة ثم يظهر مربع فوق قطعة الشطرنج مكتوب داخله رسالة اعتذار رقيق لأن عطلاً مفاجئًا أصاب اللعبة وأنه من الممكن بداية دور جديد، أقول لروحى لأواسيها على الحرمان من نصر مؤكد بعد طول انقطاع عن اللعبة أنها ربما تكون مصادفة غير مدبرة، وأترك الجهاز لعيالى معتذرًا عن طول الوقت الذى أجبرنى لأضيعه عليهم وعلى نفسى دون نتيجة مؤكدة.

***

فى الصحو كنت أستعيد خبراتى القديمة فى الفوز على الأصدقاء والمعارف أو من يطلبون ملاعبتى دون سابق تعارف، أيامها كانت لعبة الشطرنج هوايتى الوحيدة، وبمثل ما كنت أصعد كل صباح درجات الطوابق الخمسة الأولى للمبنى المجمع الكائن فى ميدان التحرير دون انتظار للمصعد لأوقع فى خانة الحضور كنت أهبط نفس الدرجات متعجلاً على حريتى دون انتظار للمصعد وأتمشى على مهل حتى أصل إلى مقهى الحرية، وغالبًا ما كنت أسمع عبارات التهليل ترحب بوصولى أو تتوعدنى بالهزيمة أو تعاود التحدى أو حتى تعلن الاستسلام قبل ملاعبتى، كنت أشعر بالنشوة وأمتلئ بالثقة فى قدرتى على الفوز عليهم بكل مودة فى نهاية

الأمر، صحيح أن الأمور كانت تتأزم فى الدور الأول وأخسره أو أخسر دورين متتابعين فأمضغ مرارة الهزيمة وأحس ببعض الانكسار وأتأسى لأننى لم أحسن الدفاع عن القطع التى خسرتها فانهزمت، لكن شيطانى العنيد كان يركب رأسى ويدفعنى دفعًا لمواصلة اللعب حتى لو اعتذر من يلاعبنى بشتى الأعذار، حتى لو تطع زميل أو صديق بأن يلاعبنى بديلاً عنه، كنت أرفض وأواصل ركوب رأسى بدعم من شيطانى المارق وأصر على إجباره ليعاود اللعب دورًا جديدًا إن كنت قد خسرت دوراً واحدًا أو دورين إن كنت خسرت دورين، كان الأمر يبدأ دائمًا بالرجاء المهذب الذى يدعوه لمواصلة اللعب أو بالترغيب لأنه سوف يكسبنى مرة أخرى أو مرتين بحسب الحالة فيحصل على لقب ملك الشطرنج فى مقهى الحرية، وكان الأمر يصل أحيانًا إلى مشاحنات بأصوات مرتفعة ومجادلات حول حقى فى التعويض بعد الخسارة أو حق الآخر فى الاكتفاء والانصراف لشأنه بحسب ظروفه، يتوسط العقلاء من كبار السن من رواد المقهى القدامى ومنهم من فاز بلقب ملك شطرنج مقهى الحرية فى الزمن القديم ويعرفون تفاصيل اللعبة ويستشعرون مواجع المهزوم ويرغبون فى أن أعوض خسارتى، كأنهم بوقوفهم فى صفى ودعم موقفى يعوضون خساراتهم القديمة للّقب، يتطوع أحدهم برص القطع على الرقعة ويبرع آخر فى إجلاس من كان يبتغى الرحيل سالبًا نصره منى سلبًا وراغبًا فى الفرار بحساباتى وحساباتهم، يستسلم خجلاً أو إشفاقًا أو رغبة فى الخلاص من الموقف أو إظهارًا للروح الرياضية السمحة، أشعر

بالنشوة وأحزم أمرى عازمًا على تعويض خسارتى، نبدأ الدور الجديد وقد تزايد عدد المشاهدين فأشعر بأننى صرت مسئولاً أمامهم وأنه يلزم أن أنتصر، أستجمع قدراتى وتواريخ انتصاراتى وأنتوى الفوز عليه على نحو مباغت يستفزه ويدعوه لمطالبتى بملاعبته دورًا جديدًا واهمًا أنه سوف يحسم الأمر لصالحه، لكنه فى أغلب الحالات كان يخسر وأستعيد أنا ثقتى بنفسى بعد أن اهتزت بعض الشىء، يتأكد للجميع أننى قادر على التعويض والنصر فى نهاية الأمر وأننى ألعب الشطرنج بروح مقاتل له ثأر يلزم ألا يفرط فيه مهما كانت المصاعب، ساعتها أشعر بجوع حقيقى رغم شبع الروح بالفوز فى النهاية، ووسط تهليل الاستحسان ممن كانوا يشهدون أتسحب من المكان وأتوجه إلى المطعم المجاور لأتناول وجبة الغداء صحنًا من الفول المدمس أو العدس وربما أقراص «الفلافل» وأحيانًا كنت أعبر الميدان وأدخل المطعم الفسيح المتخصص فى تقديم وجبات من المخ والكبدة المقلية وما زالت ساخنة ومعها سلطات ومخللات فاتحة للشهية المفتوحة، أشعر بالامتلاء وأتمشى على مهل حتى أصل إلى مسكنى الكائن فى شارع خيرت قريبًا من مقام السيدة زينب، يبدو أن المدينة أيامها كانت أكثر براحًا برغم امتداداتها المؤكدة فى كل الاتجاهات وما انضاف إليها من أحياء يسكنها بشر كثار، كنت أستمتع بالسير فى أمان، أتأمل البنايات والناس ولافتات الدكاكين والمؤسسات وكلها يشع عبقًا إنسانيًا ومودة بلا مقابل، كنت فى تلك المشاوير أتخيل حركة الناس على الأرض وكأنها بيادق أو عساكر،

أفيال وأحصنة وقلاع أو وزراء وملوك، ولا بد أن كثرة اهتمامى وممارسة لعبة الشطرنج سيطر على خيالى وجعلنى أفكر على هذا النحو الغامض، وكان الأمر يبدو لى أحيانًا وكأنه مقدمات جنون، جنون تقسيم حركات البشر على النحو الذى يحدث فوق رقعة الشطرنج، لكن الأمر كان على نحو ما داعيًا للتأمل، فالعسكرى الشجاع يموت فى الحرب غدرًا أو عجزًا عن الدفاع عن نفسه، لكنه يتقدم للأمام بجسارة وينتصر وربما يترقى إذا أحسن المسئول تدريبه وتسليحه وإفهامه أنه يدافع عن وطن، والوزير الذى يتحرك على قطعة الشطرنج مطلق الحرية لأى مسافات وفى كل الاتجاهات رغم أنه دمية يتشابه على نحو متعسف مع بعض الوزراء فى كافة أنحاء العالم، تتكتب سيرهم بحسب ما يقدمون لشعوبهم وملوكهم بالسلب أو بالإيجاب، أما ملوك الشطرنج فيتميزون بالوقار فى خطواتهم وغالبًا ما يحكمون ولا يتحكمون كما يجب أن يكون، ومثلما يتقافز بعض البشر على أكتاف الخصوم تفعل الخيل الجامحة التى تركل بسنابكها كل ما يعترضها كنت أرى أيضًا بعض البشر الفنانين يبرعون فى الدوس والدهس والفرم بغلظة فوق الأبدان كأنهم أفيال ملك الحبشة المتوجهة لهدم الكعبة فى الزمن القديم فتوقفها الطيور الأبابيل وترميها بحجارة من سجّيل، لكن أفيال هذا الزمان تفلت وتدوس وتدمر وتترك خلفها الخراب والأشلاء دون أن يحاسبها أو يوقفها أحد، أما القلاع والطوابى فهى إما هزيلة سهل تدميرها على رؤوس حراسها أو شامخة تتأبى على جحافل الأعداء، تصدها وترسل فى أعقاب

فلولها المنكسرة فرسانًا يلقنونهم آخر درس كى يكفوا عن معاودة الحصار.

دعونا من قوانين اللعبة شبه الشائعة والتى كنت أجيدها فى الزمن القديم على طريقتى الخاصة، انكسار يعقبه صحو وانتصار وكل من يتعايشون معى فى نفس المقهى فى ذلك الزمان البعيد يعرفون أنه من النادر أن أكسب أول دور رغم براعتى المشهود بها، ربما كنت فى داخلى شخصًا لا يميل إلى حصار الآخرين أو الاعتداء عليهم أولاً، كان البعض منهم يقول فى حضورى أو غيابى أننى برغم براعتى التى تتبدّى لهم فى نقلى للقطع وبرغم أننى أكسبهم جميعًا إلا أنهم كانوا يدركون ويعلنون أننى لو دخلت أى مسابقة رسمية لخرجت من التصفيات الأولى ومن ناحيتى لم أكن أهتم، كنت أرغب فى أن أكون لاعبًا له نفس طويل، مسالم ولكن بغير استسلام، أرد العدوان وأهزم من يعترضون مسارى لكن الشطرنج الآلى حيرنى فى أمره وأمر نفسى، كنت فى كل الأدوار التى أخسرها حريصًا على تسجيل انتصاره، ومن ناحيتى كنت أجاهد لاستعادة براعتى القديمة بعد الهزيمة الأولى أو الثانية، أباغته بحركات غير متوقعة وأحاصره بحيث لا يكون له مهرب بعد نقلة أو نقلتين، ساعتها كان يتباطأ إلى حد الإملال ثم تتوقف حركة الجهاز تمامًا، لا يطاوعنى أو يطاوع عيالى ليتيح لى فرصة الفوز عليه، يظهر نفس المربع فوق رقعة الشطرنج مكتوب بداخله اعتذار رقيق عن عطل مباغت ويطلب منى أن أبدأ دورًا جديدًا، كنت فى البداية أطاوعه قائلاً لنفسى إنه جهاز عجيب ومراوغ ولا بد أن

أكف عن ملاعبته، أتصور أن يكون مبرمجًا على عدم الاعتراف بأى هزيمة فى لعبتى المفضلة على وجه التحديد رغم أن الأمر فى أوله وآخره لعبة، ويومًا فى إثر يوم كان يستفزنى ويجلعنى أرفض تفسيرى القديم بأن الأمر مجرد مصادفات غير مدبرة، أسأل نفسى كيف أن هذه هى اللعبة الوحيدة التى تهدف إلى إفقاد ذى خبرة مسبقة مثلى كل ثقة فى قدراته على مشهد من زوجته وعياله؟، هل كنت خصمًا يلزم القضاء على طموحه بالحسرة على وعيه القديم بعد الهزائم المتكررة دون أمل فى نصر وحيد؟ كنت أسرح بخيالى وأقول إنه جهاز غريب ومبرمج يترصد الخصوم ويتوعدهم بالقضاء على أحلامهم رغم أنه فى نهاية الأمر آلة، وأتساءل إن كانت لعبة بريئة فى نهاية الأمر يمكن أن تتعامل مع مواطن مسالم باعتباره عدوًا أو خصمًا يلزم تصيفته؟ وهل كتب لاعب محترف هزمته ونسيته تقريرًا ملفقًا عن نشاطى فى السابق أو مشاركتى فى أحداث شغبٍ خطيرة مضادة لتوحيد العالم فى تواريخ بعينها برغم وجودى وبشكل مؤكد فى نفس مقر عملى بمبنى مجمع التحرير ما أزال؟ وإذا كان هذا الجهاز نفسه هو الذى يلجأ إليه عيالى لمعرفة ما يدور فى كل أنحاء العالم فى نفس اللحظات وبكل دقة فكيف يكون كاذبًا وهو الذى ينقل لنا صورًا لدبابات تقرم أبدانًا فى شوارع ساكتة وخالية تكتم الأطفال فيها أنفاسها رعبًا ويتأكد تقسيم الكرة الأرضية إلى أقوياء بشكل مطلق وضعفاء بشكل مطلق رغم أنها قرية صغيرة تختلف فيها العادات واللغات والعقائد منذ البداية.

كانت كل هذه الأفكار تراودنى فى أعقاب كل دور ألعبه وأوشك فيه على الفوز فتتجمد الصورة ويقهرنى نفس المربع الآسف بأدب جم عن العطل المباغت فوق رقعة الشطرنج، يدعونى إلى بداية جديدة فأفعل، أقول لنفسى أننى صرت له صيدًا حلالاً يستحق الهزيمة الأبدية والانكسار، لكننى من داخلى كنت أثق أنه سوف ينهزم فى القريب وأننى بالقطع سوف أفك شفرة اللعبة فى الزمن الآتى أو يفكها عيالى.

***

كان الأمر يبدو فى البداية لعبة، لعبة فرار وإمساك، والبارع البارع هو من يفر وينجح فى الزوغان، لم يكن الأمر يخلو من دعابة تستحق الضحك وتبعث نوعًا من النشوة إن كان للنجاح فى الفرار نشوة، ولا بد أنه هناك بالقطع نوع من البهجة أو النشوة الناتجة عن النجاح فى الفرار برغم أن العائد معدوم، لكنه على أى حال نوع من النجاح يؤكد القدرة المتميزة وبراعة التفكير.

كان هو كما بدا لى أشبه بممثل فاشل لم يتحقق بالتمثيل على خشبة مسرح أو على شاشة تلفاز أو سينما ولا حتى على موجة إرسال إذاعى، ممثل لم يعترف بموهبته أحد ولا صدق هو نفسه بأنه ينتمى لفن التمثيل بأى صلة، كان يؤدى دوره دون قصد أو على نحو طبيعى كما يقولون، لعلهم لو اكتشفوه يحق لهم التباهى باكتشاف النجم المستحيل، لكنه لم يكن من المستطاع بكل الحسابات أن يتحول إلى ممثل محترف تشيد بقدراته الألسنة

والأقلام، ربما لأنه قبل كل شيء سوف يرفض حفظ أى نص لأى كاتب مهما علا شأنه لأنه يكره فكرة الكتابة ويكره الكتاب، وبالقطع سوف يرفض طاعة أى مخرج أو يلتزم بالحضور فى مواعيد التصوير أو التسجيل، كان يرى نفسه فوق كل هؤلاء، وعليه فقد تأكد لى أن الرجل خصم لا يستهان به، يفعل كل أفاعيله بحسب إرادته الحرة وباختياره المطلق، ينطق بالكلمات على النحو الذى اختاره لنفسه ويقول العبارات التى صاغها عقله لينطق بها لسانه، يتحرك فى الفراغ، كل الفراغ الذى أوهم نفسه بأنه يملكه ويتحكم فى كل ميادينه ومؤسساته ومبانيه المطلة على شوارعه وحواريه وأزقته، كنت لسوء الحظ قد شهدت لتوى المصير التعس الذى انتهى إليه رجل مسالم ومعدوم الحيلة وقع عليه اختياره ليلاعبه لبة المساكة أو العسكر والحرامية، هل كان المصير شنقًا أو خنقًا أو ما شابه ذلك؟ ربما، لأن الأمر بدا لى ومنذ البداية حلمًا خاطفًا انقطع إرساله بحركة بدنى فى الرقاد على جانبى الأيسر، سوف أحدثكم بالقطع عن الأضرار التى أصابتنى بسبب الرقاد أحيانًا على جانبى الأيسر، ذلك أننى فى كل الحالات كنت أغطس فى سراديب النوم بعد تناول المهدئ والرقاد المستسلم على الفراش ساعة أو ساعتين فى أقل تقدير وقد انهد كيانى وتفكك بدنى وأوشكت على السقوط من طولى - أرقد على ظهرى مستسلمًا للموت، يسرح دماغى فى ردود أفعال عيالى وزوجتى إذا فوجئوا بموتى بعد فترة قصيرة أو طويلة من الرقاد، وكثيرًا ما كنت أحسها وهى تدخل الحجرة التى أرقد فيها بكل الحذر، تخطو ناحيتى بينما

أنا غاطس فى بحر النوم فأستيقظ أو أكون ما زلت أتقلب قلقًا أو موشكًا على النوم فى تلك اللحظة الفاصلة بين الرقاد وغفلة النوم، أنتفض غالبًا على الرغم منى فتبسمل هى، ربما تربت على كتفى أو صدرى وكأنها تبعث لى رسالة طمأنة أحتاج إليها لأعاود الدخول فى شراديب الغفلة، كنت أفسر الأمر على أنه نوع من توقع الموت - موتى - من ناحيتها، عشرات المرات وربما مئات المرات كان يحدث نفس الشىء وبنفس تفاصيله تقريبًا، فإذا قمت منتفضًا سألتنى عن حالتى وما أحس به، فى السابق كنت أتمكن من الكلام وربما الوصف لبعض تفاصيل ما كنت قد رأيته فى منامى أو غفلتى وانقطع بدخولها، لكننى فى العامين الأخيرين صرت لا أرغب أو أستطيع الكلام أو الوصف دون سابق ترتيب منى أو تدبير وعلى نحو بطىء وغير ملحوظ، حدث أننى أصبحت لا أرغب فى الكلام أو الوصف، وفى أحسن الأحوال كنت أكتفى بالإشارة مثل أى أبكم مدرب وبارع فى لغة الإشارة أطلب منها أن تكف عن طرح الأسئلة، تجلس إلى جوارى وتتأملنى، ومن داخلى كنت أغضب وأقول لنفسى مثلاً أنه من الممكن أن تكون هى قد لاحظت علامات الموت على ملامحى أو بدنى وأنها بالقطع جلست لتشهد الفصل الأخير من لعبة الحياة والموت، أغضب وربما أكتم غضبى أو أعبر عنه بزفرة احتجاج، ربما لو أسعفتنى القدرة أقوم وأخرج من المكان وهى فى أعقابى أو جالسة فى مكانها تتأملنى بلوم أو دهشة، وربما أبقى فى مكانى فترة ثم أعاود الرقاد فتترك هى الغرفة وتسحب وراءها الباب، أتذكر أن أباها مات فى طفولتها المبكرة جدًا فتولت أمها

تربيتها، انقطعت لها وما كفت عن الحسرة بأنه مات فوق فراشه دون أن تصدر عنه صرخة أو نداء أو صوت غير مألوف، وأنه لم يتركها وحدها وحيدة بل ترك طفلته وحيدة أيضًا دون أخ أو أخت أو حتى عم أو خال يعتمد عليه أو يساعد فى رعايتها لو تصادف أن ماتت أمها أيضًا فيكتمل يُتمها، وأستنتج أن فجيعة مثل هذه فى حياة الأم كانت محورًا أساسيًا فى حكاياتها للبنت عن مصاعب الحياة بعد رحيله عنهما فى صمت مطلق، وأقول لنفسى أيضًا إن الخوف من الموت عند زوجتى كان ميراثًا لا تملك منه فكاكًا، وربما بسبب ذلك تحولت أنا إلى موضوع للتأمل والتوقع من غير قصد، لكننى برغم كل تلك التصورات كنت أستشعر وجعًا من نوع خاص، وجع يصعب الشكاية منه أو الاحتجاج عليه، شىء يليق به الكتمان رغم كونه موجعًا وبشراسة، وربما لا يخفف منه كل طقوس الحنو والتعاطف وتلك المخاوف المرسومة فوق تقاطيعها.

نرجع لمن نصب نفسه فى المنام خصمًا لى بعد أن قمت مفزوعًا من رؤية المصير التعس الذى انتهى إليه من كان قد اختاره ليكون خصمًا له، كان لا بد أن أتوخى الحذر، أنام على جانبى الأيمن، صحيح أن الأرق ناوشنى وأن الغفلة طالتنى بعد فترة، لكننى رأيته فى منامى يختارنى خصمًا يمارس مطارداته له، كأنما كان يختبر ذكائى ومقدرتى على مراوغته والفرار منه، ولعله كان على نحو غامض يعدنى بمصير مبهج إذا أفلحت ونجحت فى الهرب منه ولو مرة واحدة، أكد لكل من كانوا يشهدون اللعبة أنه يحترم الذكاء والأذكياء، صحيح أننى فى الصحو لم أدّع الذكاء

الفائق، لكننى كنت أعرف أننى أنتمى إلى فصيلة الأذكياء، ربما كنت واهمًا أو كنت محقًا لكننى كنت أرانى على هذا النحو من فصيلة الأذكياء، وربما بسبب ذلك لم أتخوف كثيرًا من لعبة الفرار من الحصار، ربما بدا لى الأمر هيّنًا فى المنام، ولا بد أن النوم يحرر الإنسان من بعض مخاوفه التى تلازمه فى صحوه.

كان علىّ أن أرمح فى طول المدينة وعرضها عارفًا أنه سوف يطاردنى بكافة الحيل والألاعيب، كنت قد تخلصت من إحساسى بالخوف أو الخطر وكأننى شاب يافع ما زلت، أفر وأفر وهو فى أعقابى، تغرينى على المواصلة نشوة الانفلات من كل الفخاخ المنصوبة والشراك المفحورة وقد تخطيتها، هل كانت تتبدّى لى فى الأفق القريب بوادر حياة هادئة أو مصير مبهج لو أنه أوفى بوعده؟ ربما، لكنه كان وهمًا فى منام جعلنى أطرح على نفسى سؤالاً لا يحتاج إلى ذكاء خارق للإجابة عليه، كنت أسمع صوت نفسى وأنا أكرره مستنكرًا:

ـ يا عبيط ... متى أوفى الخصوم الخصوم بوعودهم؟

وأرد على نفسى بنفسى:

ـ يا عبيط .. ومتى توقع العقلاء أن يمنحهم الخصوم الخصوم مكافآت لأنهم بارعون؟

لكننى كنت أفر ويحاصرنى، أفر ويحاصرنى وأعاود الفرار، وكان هو قد أعلن نجاحى فىْ كل الاختبارات، كانت عيون الناس تتابعنى بإعجاب وأصواتهم تهنئنى على النجاح فى الخلاص من كل

الفخاخ ووسائل الحصار، ومن بين الناس اقترب منى ثلاثة من الشباب المتحمس، شدوا على كفى ثم ربتوا على ظهرى وصدرى وجعلوا يمسحون على رؤوسهم وأبدانهم بكفوفهم التى لمستنى، كأننى صرت وليًا من أولياء الله، تذكرت الحسين بن على والسيد البدوى فأدهشنى الأمر، كانت هناك عربة «حنطور» فسيحة ومكشوفة تجرها أربعة خيول عربية بيضاء وتزينها الورود التى تفوح روائحها العطرة فتسحر الألباب، ساعدونى بكل الأدب وأركبونى، أحاطونى بينما تعبر العربة الشوارع والميادين حيث كانت آلاف العيون تتابعنى بكل الإعجاب بينما الكفوف تصفق والحناجر تهتف فتأخذنى نشوة النصر وألوِّح لهم واقفًا ومتخليًا بإرادتى عن مقعدى الوثير، يهلل قلبى مع الناس فرحًا لأننا تخلصنا من زمن الحصار والفرار، وقبل أن ينتهى موكب المنصور الذى كنته بدا لى أن عجوزًا عاجزًا ومحنيًا على نفسه يشير بعصاه التى يتوكأ عليها ناحيتى يستمهلنى، كانت له لحية بيضاء كثيفة وطويلة تستلزم حسن التقدير والرعاية، هل أمرتهم بشهامة المنتصر أو أشرت عليهم بالوقوف ليركب إلى جوارى؟ ربما، لكنه بعد أن ركب رأيت فيه وجه الخصم بكل تقاطيعه وقد انفرد عوده وانخلعت لحيته المستعارة ثم اتسعت أشداقه بينما يضحك بشماتة كبرى لأنه أسقطنى فى أضيق فخاخة وتأكد من انتصاره، لحظتها تأملت وجوه الشباب الثلاثة التى كانت تحيطنى فاكتشفت أمارات الشبه الشديد بينهم وبينه، كان الفخ محكمًا ومفاجئًا لم أعمل حسابه، وكان السقوط مدويًا بحسابات الجميع، لكننى لم أستسلم تمامًا،

لعلنى طالبت بالعدل المستحيل فى المقام، حاولت توسيط واحد من أولاد الرجل ليوضح له أننى بكل الحسابات كنت قد أفلت من الحصار وأننى فررت بشرف وراوغت بشرف فأجلت اللحاق بى أكثر مما كان الكل يتوقع، كان الشاب يتسمع كلماتى ويزنها بميزاته فتبدو له موزونة، تبدو على وجهه علامات التعاطف والموافقة على أفكارى، يتركنى محاصرًا بالشابين الآخرين ويقترب من الرجل هامسًا فى أذنه بكلمات فى صالحى، لكن الرجل كان يرفض بعناد بغل أن يواصل الاستماع، يعود الشاب ليستنطقنى كى أقول له المزيد للدفاع عن نفسى فيبدو متعاطفًا أكثر فيشير إلىّ بأن أرتاح، ثم يتركنى فى حراسة شقيقيه ويذهب إلى الرجل، يقول له إنه متعاطف مع حالتى وأن شقيقيه اللذين يحاصرانى متعاطفين معى مثله، يضيف بصوت مسموع أن قوانين العدل الدولية والأساليب الديمقراطية الحقيقية فى صفى من كافة الوجوه، لكن الرجل كان ينظر ناحيتى بغل وكراهية عمياء، ربما قال شيئًا يفيد أننى أوشكت على قلب موازين الكون لأننى حصلت بالحيلة أو بالسحر على تعاطف أولاده، يوبخهم ويتهمهم بالغباء فيطرقون خجلاً ويؤكدون التزامهم بكل الطاعة له دون أن يتخلوا عن الدفاع عنى، يدفعوننى دفعًا لأن أدافع عن نفسى بنفسى فى مواجهته، أفعل بعد تردد وأجاهد أن أوضح له أن الأمر كان خدعة من خارج قوانين لعبته هو بحسب ما اتفقنا عليه فيسخر منى ويقول إن الصراع على البقاء ليست له قوانين وأن الغفلة هى الغفلة والغباء هو الغباء بدرجات متفاوتة، يعترف ببعض ذكائى لكنه يقلل من قيمته لأننى فى نهاية

اللعبة وقعت فى واحد من فخاخه المنصوبة حولى، يدفاع بعض الغرباء عنى بأصوات خافتة ويدافع عنى عياله بأصوات أكثر خفوتًا لكنه لا يستجيب، يطالبنى البعض بمعاودة المحاولة معه لأفلت من عقابه البشع، ينصحنى أكبر عياله بأن أتودد إليه أو أداهنه وأعترف له بالنصر قائلاً إن مثل هذه الأشياء تجعله أكثر ميلاً للمسامحة والعفو، أتردد أولاً ثم أبدأ فى شرح حالتى معه مؤكدًا أننى لم أكن أضعه فى خانة الخصوم أبدًا، أوضح له أن الأمر كان من بدايته لعبة فيذكرنى بأننى رأيت بعينى رأسى المصير التعس الذى وصل إليه الرجل الطيب، يسخر منى أكثر فيتبدى لى جلفًا دمويًا بلا مشاعر، أحاول مرة أخرى فلا يحيد عن موقفه المعادى لى، أشعر أننى نزلت ونزلت ثم تنازلت بأكثر من حساباتى عن نفسى استجابة لنصائح عياله الذين أعلنوا كامل الولاء له والاستعداد لتنفيذ كل أوامره فى نهاية الأمر بغض النظر عن بعض الخلافات الشكلية التى تسبك اللعبة فى عيون الناس الودعاء.

يتبدل حالى فألعنه، أبصق بكل قرف على ملامحه فيمسح آثار البصقة بكل التواضع الزائف، يشهد الجميع على عصبيتى وانفلات لسانى بالشتائم اللاذعة، لا أتوقف رغم حصارى وأصرخ بأننى لو كنت فى شبابى القادر ما تمكن منى أبدًا، أقول له إنه لو صادفنى فى تلك الفترة لكسرت أنفسه أو أضلاعه أو رقبته وقد كنت فى شبابى بطلاً للرمى والسباحة وركوب الخيل، كان من الممكن أن أصرعه فى أى ميدان، أكشف له ولهم صدرى لأريهم آثار جراحة

القلب المفتوح التى أجريتها، يتعجب الحاضرون من قدرتى على تخطى كل المصاعب التى صادفتها برغم ما وصلت إليه حالتى، لكن الرجل كان يبدو بليدًا وشامتًا إلى أبعد حد، عيناه تنضحان كراهية ووعيدًا قبل أن يشرح لهم ولى بنبراته الباردة مصيرى التعس الذى ينتظرنى، تتقلب موازين الأشياء فيهللون استحسانًا بينما يشرح لهم الأسلوب المبتكر الذى سوف يتم بمقتضاه خنقى أو شنقى، كنت أنا قد تماديت وحدى فى التهوين من قيمته وقيمة الزمن الذى أتاح له الفرصة ليتحكم فى مصيرى على هذا النحو بسبب أننى تجاسرت ولاعبته، وكنت أدعوهم لمقاومته وكشف مفاسده بأجرأ العبارات، كان يشهدهم على انفلاتى فيستنكرون كلماتى، أتحول إلى شهيد على الحافة بين الموت والحياة، شهيد مات بالفعل لأنه أفرغ بالكلمات شحنات الغضب والاحتجاج لكنه لن يفلت من تنفيذ العقاب فى البدن لإزهاق الروح إن كانت ما زالت هناك روح تحتمل مزيدًا من الإزهاق، لعلنى كنت قد سألت الرب الخالق ليبعث لناس الأرض بعض عدله بمثل ما يبعث إليهم الأرزاق والأعمار والمصائر واثقًا من استجابته للدعاء الصادق الذى ينطق به لسان العبد المؤمن.

كان الرجل هناك لا يزال وقد أحاطنى أولاده بكل القيود وبكل الغلظة التى لم أكن أتوقعها منهم، لكنهم على ما بدا لى لم يشفوا كل غليله فراح يسخر من رقة مشاعرهم ونعومة أناملهم، كنت مأسورًا وقد انفض الناس من حولى ولم يعد هناك فى الميدان غيرنا، أنا وهو والقيود وعياله الثلاثة الذين صاروا يتشابهون معه

فى كل شىء، الملامح وقسوة القلوب والرغبة فى الانتقام بكل ضراوة، هل كادت اللعبة تنتهى لصالحه بخنقى أو شنقى على نحو غير مسبوق؟ ربما استشعرت ذلك زمنًا خاطفًا، لكننى بحركة عفوية أفلت نفسى من الكابوس فأعادنى الصحو المباغت للحياة وحررنى.

لو كان مشروبًا باردًا أو ساخنًا أو عبوة تنباك «معسل» فوق حجر شيشة مخصص للتدخين على النمط العربى أو التركى لهان عليهم الأمر وفهموا سر تكرار النطق بالاسم المختصر على ألسنة معظم سقاة مقاهى تلك المدينة العجيبة شبه المعزولة، بينما السقاة يتقافزون ويبتسمون لإضحاك زبائنهم على اللغز نصف المكشوف، أو النكتة المتكررة بهدف كسر حالة جمود كامن وساكن فى قلوب الزبائن، للتسرية عنهم عندما ينادى الواحد منهم زميله المكلف بتجهيز الطلبات داخل المقهى قائلاً:

- «واحد جعجع وصلّحه» مع شاى وقهوة سادة وشيشة»
- كركديه وينسون وحلبة مع «واحد جعجع وصلّحه»
- خمسة بارد وواحد زنجبيل مع «واحد جعجع وصلّحه»

***

يعرف غالبية سكان تلك المدينة «أن «جعجع» هو اختصار لاسم رجل عاش فى هامش الهامش قبل شيوع اسمه المختصر ليصبح منطوقًا على كل لسان، وأنه بعد أن امتطى مقعده الدوار بمكتبه

البراح بعد أن صار مسئولاً عن مؤسسة «التوعية والبهجة» المنوط بها تنوير وتوعية المواطنين بحقيقة ما يدور حولهم، وزراعة الفرحة فى قلوبهم، شاع اسمه على هذا النحو ربما لأنه صرح قبل تعيينه عدة مرات فى الصحف المقروءة أن المسئولية تتطلب أقصى جهد لتحقيق ما عاش يحلم بتحقيقه للفقراء فى المدينة، وأنه لن يقبل الإشراف على المؤسسة ما لم تتوفر لها ميزانية مفتوحة تتيح له أن تقوم بدورها الذى يتمناه على أكمل وجه، وبعدما حصل على الميزانية المفتوحة استبشر الناس خيرًا وتحدثوا عن أصله المتواضع ووفائه لمن ينتمى إليهم من فقراء المدينة، وقد صبروا وتصابروا عليه كثيرًا وواصلوا الحلم بأنه سوف يفى لهم بما وعد ويطور مؤسسة «التوعية والبهجة» لتكون لائقة وأكثر فاعلية وإيجابية لمدينة لها تاريخ لا يمكن تجاهله أو إنكاره، لكنه لم يزود الوعى كما توقعوا، لا زرع فى القلوب فرحة ولا زرع حلمًا يليق باسم دكتور متخصص فى «دراسات البهجة والتوعية» وله انتماء لحزب ينحاز للفقراء والمعدمين لكنه لم يف بوعد من وعوده المتكررة المعلنة بشكل مسموع ومرئى، وبرغم ميزانيته المفتوحة اكتفى بمواصلة «جعجعته بلا طحن» من خلال صحف صفراء أو حمراء أو خضراء للعام السادس على التوالى، اكتفى بتصريحاته المبهجة بلا إنجاز ملموس أو محسوس غير ما يبوح به بأن مشواره طويل، وأن التعجل دون دراسات علمية سيؤدى لكوارث، لا يقبل أن تحدث فى زمنه، وكان بعضهم يصدقه ويحلم والبعض الآخر يؤكد للآخرين أنها أكاذيب تتكرر وتتوالى يومًا بعد

يوم وأسبوعًا بعد أسبوع وعامًا إثر عام ثم فاجأهم باحتفاليته بمرور عشر سنوات على جلوسه فوق مقعده الدوار، ليعلن خطة تطوير مؤسسة «التوعية والبهجة» وبسبب مبالغته فى الإعلان عن الاحتفالية وتعليق لافتات مصروف عليها بسخاء فى ميادين وشوارع وحارات المدينة بشكل غير مسبوق سخر خصومه بمرارة، وقالوا إنه لو أنفق أموال الإعلانات بميادين وشوارع وحارات المدينة على المحتاجين لتأكيد وفائه بوعوده الوردية لانتشرت معالم «البهجة والتوعية» بالفعل، كانوا فى قعداتهم ينتقدونه ويتندرون عليه لأنه امتنع عن توظيف ذوى الخبرات القديمة من أهالى المدينة المشهود لهم بحسب ما كان يشاع بينهم، بينما وفود الغرباء من كافة أنحاء الكرة الأرضية تحتل أفخر فنادقها، وبدعوى أنهم يشاركون بخبراتهم النادرة فى التخطيط لمؤسسته، إضافة لإنفاقه السخى للعاملين معه من ميزانية المؤسسة، كما كان يؤشر أن البند يسمح بتكاليف سفر الغرباء ذهابًا وعودة بالإضافة لمكافآت سخية بعملات صعبة مقابل أبحاث أو مسودات مخطوطة بحسب شهادات من كان يجبرهم الحظ لحضور اللقاءات ويسمعون بآذانهم تلك الأبحاث ويؤكدون لكل من يسمعهم أنها مجرد ثرثرات لا تلفت الانتباه أو تفيد، بينما ينشغلون بالمستقبل ويحلمون بتزويد التوعية الحقيقية، ورغم الفشل الذى يتلوه فشل أو يسبقه فشل كان أ: د: جعجع يصدر أوامره لمن يعملون تحت إمرته لإعداد احتفالية أو مهرجان جديد، فربما يكون أكثر جاذبية من سابقه ويسعى من يعملون تحت إمرته بمهمة الإعداد للمهرجان الجديد، يقترحون

أشكالاً مبهرة وتفاصيل وبنود الصرف ل «مهرجة جديدة» ويقدمونها إليه بمستندات رسمية للتصديق عليها، ويتبادلون التهانى إذا أرضته مساعيهم لأنهم يحصلون وسط «الزفة» على مكافآت وبدلات حضور جلسات وانتقالات وسهر دونما سهر أو انتقالات لأى الاتجاهات ويصدّق هو بخط يده على العنوان الذى يراه ملفتًا للانتباه أو يتصوره أكثر جاذبية قبل أن تتوزع أخباره لتنشر على أوسع نطاق فى صحف ومجلات ووكالات أنباء، ولا ينسى الصحف الصفراء قبل أن تطلق الشائعات عن أى نشاط ناجح أو فاشل، ما لم يخضع المشرف عليه لأساليب الابتزاز، يدفع تكاليف التغطية الصحفية على شكل تحقيقات مزينة بصور للمسئول بشرط أن تكون مدفوعة الأجر، لكن علاقاته العامة لم تكن بخيلة مع من يتضامنون معهم لأنهم يدفعون من بنود صرف مدعمة مفتوحة بأمره قبل بداية «المهرجة» الجديدة، ولا يدرى أحدهم كيف اتسعت دائرة من ينتقدونه فى السنوات الأخيرة بمقاهى وسط المدينة التى تلملم أشتاتًا من شباب ورجال عاطلين أو أشباه عاطلين فى جلساتهم المفتوحة أو المغلقة وتدفعهم للسخرية من «جعجع» بمثل هذه العبارات المنطوقة على ألسنة سقاتها، كان غالبية الرواد حملة لمؤهلات عليا أو متوسطة فى تخصصات ووظائف متنوعة ممن لا تكفيهم رواتبهم، لكنهم كانوا أفضل حظًا من العاطلين وأشباه العاطلين ممن يتضاحكون بمرارة على أنشطة مسئول «المجلس الموقر» العاجز بشكل بيّن عن تأدية دوره فى توعية عيالهم أو زراعة أى حلم مبهج لتعديل أحوالهم بشكل لائق.

فى رواية طلعت من بطن مقهى مشهور كائن وسط المدينة أن أصل التسمية كانت كشفًا أسندوه لواحد من الظرفاء من رواده، ويقال إنه جاء ذات مساء وجلس على مقعده دون أن يثبت فى مكانه كما هى عادته إذا كان مشحونًا بنكتة جديدة يتحفز لإلقائها لينال استحسانهم، تركزت عليه نظراتهم وتهيأوا لاستقبال نكتته، فابتسم على غير عادته قبل أن يقول بكل وقار:

ـ أصل «المهرجة» فعل معرف بألف ولام تحول لاسم مشتق من «مهرجان» لكن «مَهرَج» بفتح الميم والراء فعل ماض يضاف إلى المهرّج فيقال «مَهرَج المهرّج» أما «الجَعجَعة» التى هى اسم معرّف أيضًا من فعل «جَعجَع» التى تضاف إليها ألف بعد الجيم الثانية فتصبح «جعجاعًا» فيمكن أن تتحول لجملة فعلية هى «جَعجَع الجعجاع» إذ يقولونها عن كل من يطنطن ولا يعمل شيئًا إيجابيًا، فيستحق تشبيهه بمطحنة حبوب بدائية من حجر جيرى تتسمى باسم «الرحى أو الرحاة» تدور وتكركر بلا فائدة، فيقال فى وصفها «جَعجَعة بلا طحن».

كان زملاؤه قد تصابروا عليه رغم أنهم تاهوا ولم يصل أحدهم إلى غرضه من تلك الشروح الطويلة لأصول الكلمات والأفعال التى تناسب تلامذة مدرسة إعدادية، من المستحيل أن تكون نكتة أو شبه نكتة عكس ما اعتادوه منه لأنه بارع فى توليد وإلقاء النكات المختصرة التى تجعلهم يشعرون بالنشوة ويضحكون من شغاف قلوبهم المهمومة، ولأنه بعد أن قال تلك المقدمة المملوطة

استشعر الحرج، فتبادلوا النظرات قبل التواطؤ بشكل جماعى وفى وقت واحد تقريبًا لمجاملته بضحكات خافتة متقطعة، ولا بد أنه لملم نفسه بسرعة وقرر التكفير عن غلطة شعر بأنه ارتكبها من غير قصد، قائلاً إنه لم يحسن عرض ما عنّ له فكرة طارئة رغب فى توصيلها لهم فلم تصل، وواصل بعد أن خفتت الضحكات الخافتة أكثر قائلاً إنه يتكلم بجد لأنه تذكر اسم د: «جعجع» فى الليلة الماضية، وأنه كان يكابد أرقًا مباغتًا جعله يفكر بينه وبين نفسه فى حل لغز اسمه الذى صار شائعًا بينهم يرددونه ويعرفون نصف معناه فاكتشف أنه إذا كانت «جَع» الأولى اختصارًا لاسمه الذى تطالعهم به الصحف والمجلات بشكل متواتر وهو أ. د: جعفر عبد رب النبى فما هو أصل جَع الثانية؟ لاذوا بصمت حائر وهزوا رؤوسهم ساكتين ليتيحوا له الفرصة ليفك اللغز، تنحنح قبل أن يعتدل فى قعدته بجدية ليعلن لهم أن جع الثانية اختصار لعبارة «جامعة عين شمس/ أو جامعة عصرية أو عربية عالمية» أو شىء من هذا القبيل، أنهى توضيحه ولاذ بصمت المكتشف المتواضع فانطلقوا فى الضحك من شغاف قلوبهم عكس المرة الأولى، ولم يتمالك هو نفسه من الضحك ليزيح همومًا ساكنة بقلبه المحزون، وساعتها تأكدت لهم غربته وبطالته التى طالت وأجبرته على استهلاك وقت فراغه الممطوط بالمقهى ليتخفف منها، شبعوا من الضحك فاقترح أكثرهم خبثًا أن يكون الاكتشاف العبقرى خاصًا بمجموعتهم وحدها دون بقية خلق الله فى المدينة، فيفطسون على أرواحهم من الضحك بعكس من يسمعون وعلى وجوههم علامات

عجز وكدر بسبب السخف المتواصل الذى كانت تمارسه مؤسسة احتكرها د: جعفر عبد رب النبى بوضع اليد وجعلها ميراثًا شخصيًا له تقريبًا دون مستندات، حالة اغتصاب باستخفاف أو خفة يد أو ثقل ظل كابس عليهم يشبه الاستعمار الجديد كما قال صاحبهم، فتعاهدوا على كتمان اللغز، لكنهم فى اليوم التالى سمعوا أصواتًا فى المقهى تتبادل فك طلاسم الاسم لبعضها البعض بصوت عال ويضحكون بعكس ما كانت أمورهم فى السابق تدعو للكدر والغم، ولعل السقاة كانوا أكثر حساسية فتفننوا فى صياغة اسمه مختصرًا، يقولونه مسبوقًا أو متبوعًا بطلبات الرواد كأنها براءة اختراع شاعت وانتشرت بشكل مجانى فى مقاهى المدينة وعلى كل المستويات، أو كشفًا قصير الأجل بالنسبة لمن كابد أرقًا فى ليلة سابقة ليفك لغزًا عصيًا باح به لأصحاب يثق فى حسن نواياهم فأشاعوه، وبمرور الأيام تأكد لديه بمثل ما تأكد لكل مجموعته أن اللغز أصبح دوارًا فى طول المدينة وعرضها، كان الناس يذكرون الاسم عرضًا فى المركبات العامة ويضحكون بنشوة وكأنها أحدث نكتة تقال لعشرات المرات ولا يقول أى واحد يسمعها أنها قديمة، ولعل الشاب العاطل رغم أنفه والذى تصور أنه اكتشف لهم شفرة اسم «جعجع» ارتاح بعد أن دخلت دماغه فكرة خاطفة صدقها وأراحته من سوء الظن الذى لازمه شهرًا أنه احتمال قائم أن يكون هناك من أطلق على الرجل اسمه المختصر قبله وتاه من ذاكرة الناس رغم الشيوع المتسارع لنكات يصعب التعرف على قائلها أول مرة، تأكدت المجموعة يومًا فى إثر يوم،

أنه لا توجد أسرار فى هذه المدينة يمكن كتمانها حتى ولو كانت فى منتهى الخطورة، بمثل ما كان يجرى فى أواخر ستينيات القرن الفائت، عندما كان راكب الحافلة يطلب من سائقها أن ينزله قبل أو بعد أو أمام محطة المطار السرى.

***

فى واحدة من أمسيات الصيف استأذن رجل من كبار السن مجموعة الشباب من رواد ذلك المقهى ليشاركهم واحدة من جلساتهم على نحو أوحى لهم بأنها زيارة مدبرة ومقصودة ولا فرار منها، ورغم أنهم توجسوا منه خيفة، إلا أنه فاتحهم وهو يتأمل وجوههم المرتبكة كيف أن كثيرًا من مهرجانات تلك المدينة تقام لإلهاء الناس بلا جدوى «عبثًا فى عبث» فخافوا أن يبعبع أحدهم بوجهة نظره بلا تحفظات وطالبوه بفك طلاسم الاسم المختزل الشائع وأسباب أن كلمة «جعجع» صارت تثير الرغبة فى الضحك عند كل ناس المدينة بعد أن كانت تصيبهم بالقهر أو بالسكتة؟ فأجابهم على الفور ضاحكًا بصوت عال وهو يضرب كفًا بكف وكأنه لم يضحك فى حياته قبل ذلك:

- إن الموضوع يخص الأستاذ. د: جعفر عبد رب النبى دون سواه، واسألونى عنه أكشف لكم خباياه.

ولأنه كان يضحك فقد شاركوه الضحك مبتهجين، وبعد أن كفوا وساد الصمت راح يتأملهم بعينيه الصاحيتين ليفرز تقاطيعهم واحدًا فى إثر واحد فتلملموا وتوجسوا خيفة على ذواتهم، لكن

الرجل طمأنهم وأكد أنهم فى أعمار أولاده وأنه ما جاء ليتجسس أو يتبصص عليهم أو يفكر فى إلحاق الضرر بأى واحد منهم، بدا لهم صادقًا وحنونًا، فهزوا رؤوسهم بالتتابع علامة الاطمئنان إليه إلى حد أنهم تمنعوا أن ينظر أى واحد منهم بتركيز لبطاقة الهوية وقد أخرجها من حافظته وفتحها ليريها لهم، ولا بد أن ثقة متبادلة نشأت بين العجوز ومجموعة الشباب، دعته ليعتدل ويتقبل عرض أحدهم ليتناول مشروبًا على حسابه، فلم يتردد ونظر للساقى الواقف أمامه باسمًا ثم قال بخفة:

- لا مانع ... قهوة مضبوط وواحد «جعجع وصلحه»

وبنفس الإيقاع كرر الساقى عبارة الرجل بينما يتحرك فى نفس المربع، فتضاحكوا بصخب كان يتناقص على مهل حتى جاء الساقى بالمطلوب، فتجدد الضحك بينما يتابعون الرجل يرتشف محتويات الفنجان بتلذذ ويزيحه بعيدًا عنه ثم يحدثهم:

- فى السابق كانت المهرجانات تقام بواسطة المؤسسات المتخصصة إذا كان هناك ما يتطلب التجهيز لها أو الصرف عليها لإسعاد الناس، تقام فى مناسبة قومية أو وطنية أو فكرية للترفيه عن خلق الله أو التخفيف عنهم ما دامت مطلوبة ومشروعة، لكن موضوعنا عن مؤسسة التوعية والبهجة يختلف ولا يحتمل خلط الأوراق على هذا النحو المستفز لكل من له عقل يفكر،، فالوعى مطلوب أولاً قبل أى شىء ويمكن مثلاً تغليف الوعى بأغلفة تبعث البهجة فيتم المراد من رب العباد، وتصل رسالة التوعية بما يدور

حولنا بوعى وخفة خلافًا لما نراه أحيانًا من «مهرجانات» غبية تليق بالحواة أو المهرجين أشباه بهلوانات الموالد الذين شفناهم وشاف بعضها فى صباه مثل مولد السيد البدوى وإبراهيم الدسوقى والسيدة زينب وصولاً للحسين بن على رضى الله عنهم.

***

كان الرجل قد فرض وجوده فاستجابوا والتفوا حوله ليستمتعوا بحيويته وخفة ظله التى لم يتوقعوها من رجل فى مثل عمره، كان من الواضح أنه يتمتع بخبرات جمة حولته إلى بؤرة تتطلع إليها عيونهم بانبهار فباح لهم بما يمكن أن يعتبرونه سرًا عندما أكد دون أن يطرف له رمش أنه أول من أطلق على «جَعجَع» اسمه المختصر لكن بشكل مغاير عن زميلهم المجتهد الذى يتمتع دون شك بخيال خصب حسبما أكد، تبادلوا النظرات فأضاف ليزود دهشتهم:

- اسمحوا لى أن أطالبكم بتأمل ملامحى بدقة، أنا أعرف أنها تبدلت كثيرًا، لكن ما حيلتى؟ والزمن لا يرحم غالبًا، لأنه يحفر فوق ملامح البشر خطوطًا لا تخطر على بالهم.

تبادلوا النظرات الحائرة وتردد فى معاودة طلبه ثم تطوع مندفعًا ليبوح لهم على مهل وبشىء من الخجل:

- سأبوح لكم بأننى كنت المسئول عن تأسيس «مؤسسة التوعية والبهجة» وأننى اخترت جعفر عبد رب النبى ليكون مساعدًا لى، مخدوعًا فى تفوقه خلال سنوات دراسته، ولأنه من نفس قريتى

التى ولدت فيها، وربما كانت بينى وبينه قرابة من بعيد حسبما أكدوا فى بداية مشواره معى.

تبادلوا النظرات بارتياب وربما بخجل أو خشية من عتاب قد ينالهم منه، لكنه هز رأسه وأشار لعامل المقهى ووجه إليه أمره بكل حنو، ليعاود تقديم المشروبات للجميع على حسابه قبل أن يواصل ما كان يحدثهم به عن جعفر عبد رب النبى، وكيف تحول إلى متآمر ضده على غير توقعاته بسبب ثقته العمياء فيه، وكيف استعان جعفر بأعوان له فى الخفاء ممن يعملون بالمؤسسة مقابل بدلات حضور جلسات وهمية أو سفريات لم تحدث وبدلات عن منجزات لم يقم بها أحد، كان يطلب منه بأدب جم التوقيع على كشوف صرف مكافآت للعاملين فى «التوعية والبهجة» مؤكدًا أنها ستزوّد حماسهم فيضيفون لها مزيدًا من الجهد فيعلو رصيدها أمام المسئولين، وكانت المسألة بحساباته خلافًا لا يفسد للود قضية، لكن ما جرى بعد ذلك وما أشاعه «جعجع» ضده تنفيذًا لترتيبات تحتية على غير توقع منه، كانت سلاحًا مسمومًا له حدّين أصابه فى القلب أحدهما وأصاب حدها الثانى «المؤسسة» وعطل دورها فى التخفيف عن قلوب الناس، كانوا يركزون النظرات مظهرين تضامنهم معه تأدبًا، لعل بعضهم استعاد الزمن الفائت أو تذكر كيفية تنحيته من تولى أمور «المؤسسة» قبل د: جعفر لأن الموضوع كان يتواتر على ألسنة آبائهم باعتباره نموذجًا لفضيحة معلنة بوثائق، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على مواجهة الرجل بما نشر عنه، والرجل يهز رأسه مبديًا حسرته على ما فات، حريصًا على أن

يضع نفسه فى خانة من يحسنون النية بشكل مبالغ فيه، متجاهلاً كل ما أشيع عنه من اتهامات بالتربح قبل إقالته وتعيين «جعجع» متشكيًا بأنهم تهددوه وتوعدوه بمصير أصعب إذا تشكى أو بعبع بما يسىء للمؤسسة، وقال وهو يبتسم متظاهراً بغير الاهتمام تمامًا على نحو غير متوقع:

ـ أنا قلت لنفسى أيامها أن الجنازة حارّة والميت كلب، وطوّعت روحى لأرتضى بالتباعد باختيارى عن أى مناصب، حتى لا أتحمل أية مسئوليات محفوفة بالمخاطر، حرصًا على عمرى الباقى لأتمكن من تربية عيالى.

أظهروا استحسانهم لاختياره وكتموا عدة أسئلة دارت فى خيالاتهم حول مصداقيته بقبوله الخروج من عمل كان يؤديه على نحو محترم بفضائح لا يمكن تجاهلها مهما قال أو أقسم دون أن يعترض على ما اتهموه به من فساد فى عقر داره، ولماذا ظهر تحديدًا بعد أن اكتشف أهل المدينة انحراف المؤسسة عن تأدية دورها أكثر وأكثر فى الزمن التالى للفترة الذى تولاها فيه، والتى لم تكن بريئة بالقطع كما يدعى، صحيح أن الرائحة فاحت أكثر وصحيح أن المهرجانات والاحتفاليات صارت تقام بمناسبة أو بغير مناسبة مهما تكلفت من ميزانيات ومهما تأكد أنها بلا أدنى مردود علمانى أو نفسانى محسوس لقلة روادها بشكل فاضح، وأنها لا ترقى لمستوى اللهو المشروع أو غير المشروع فى موالد مفتوحة لأولياء الله الصالحين، حيث يتجمع الناس حول الحواة والمهرجين

فى ساحات يشغلها السيرك القومى أو الأهلى وألعاب أراجوزات أو ثلاث ورقات للضحك على الذقون بلا رقيب أو حسب، ولأن مرحلته لم تكن فوق مستوى الشبهات، سأله أحدهم بتخابث عن جعجع فابتلع الطعم وهز دماغه متفكرًا وقال بزهو:

ـ كان مجرد تلميذ شاطر، لكنه كان فى نفس الوقت نهازًا للفرص وعاجزًا عن الوصول لمشاعر الناس الذين انفصل عنهم بعد حصوله على الدرجة العلمية وتعيينه معيدًا فى الجامعة، ثم انتدب للعمل بواحدة من الجامعات الأجنبية لتدريس أصول اللغة العربية لمستشرقين جدد ومنشغلون بدراسة بلادنا على كل المستويات قبل انتدابه للمؤسسة، لكنهم أقالونى وعينوه بديلاً ليترأسها، ومن عاصرونى تأكدوا أنه لن يتمكن أن يكون امتدادًا لى بمستوى يساوى أو يقترب منى، سكن واستتب وأبعد كل من اعترض أو قال لروحه بينه وبين روحه أننى لم أتربح على المكشوف، بمثلما فعل ليسىء لتاريخ مؤسسة راسخة للتوعية والبهجة الوقورة بأساليبه «البراجماتية الفكرية المعاصرة» بتبجح بقدرة على التباهى وهو طالع من تحت السلم كما يشهد كل من عايشوه فى طفولته التعسة، لكنه تألق وصار يقولها بتبجح، إنه عبر الخطوط الفاصلة بين ماضيه وحاضره وانفلت ولن يعود للفقر أو الفقراء أبدًا.

كانوا يتبادلون النظرات ولا يتعاطفون مع الرجل الذى يحكى لهم تجربته وعيناه تتظاهران بأنهما تجاهدان لمنع دموعه من أن

تتساقط، فتتساقط ويدّعى بينما يجففها بمنديله تحت منظاره، أنه دخان الشيشة أو السجائر يغزو عينيه الموجوعتين بحساسية ضد كل أنواع الدخان، وربما شعر البعض منهم بالتعاطف معه وطالبه بنسيان الموضوع وقد تحول اسم «جعجع» فى ذلك المساء إلى رمز لتزويد الهم المعاش.

***

كتبت صحيفة مسائية قليلة التوزيع أن أ. د. جعفر عبد رب النبى طالب جميع من حضروا آخر مهرجاناته بأن ينهلوا من علوم الدول المتقدمة وثقافات العالم، وتفتيح عقولهم والانفتاح على الدنيا بأسرها قبل أن يفوتهم قطار التقدم، لكن رجلاً عجوزًا فى سن المعاش قاطعه قائلاً: إن أبواب بلادنا منفتحة بشهادة التاريخ المكتوب والمروى من أيام الفراعين والبابلين والآشوريين وأهل الشام وفلسطين والسودان القدامى ومن عاصروهم من جيران الواحات والصحارى المسكونة، وأن حكاية العالم الذى تحول إلى قرية واحدة مشكوك فيها، وأضاف بأن الدنيا محكومة بالأقوياء لا تزال، وأن الارتماء فى أحضانهم ليس مشاركة بل تبعية مكشوفة، وذكر محرر التحقيق كيف حاول أنصار أ. د: جعفر عبد رب النبى إسكات الرجل أو إبعاده بالقوة لكنه واصل كلامه محميًا بمجموعة من الشباب وواصل اتهامه لمسئول «البهجة والتوعية» أنه مجرد تابع غير أمين، كان لمكبر الصوت مفتاح فصله أعوان المتهم ليتوه صوت الرجل قبل أن يمسك «جعجع» بيده السماعة وقد جلس فوق

المنصة الكائنة أمام القلة الحاضرة وغالبيتهم من العاملين بها، تنحنح فخرجت نحنحته صافية من مكبر الصوت ليمتص صوت الرجل العجوز وتجبره على الاستسلام، وبعد النفخ والزفير طالب مالك المكان بوضع اليد الموجودين بالصمت وحسن الاستماع، كان العجوز يشوح بيديه وكل بدنه ويهذى بصوت عاجز عن الوصول للأسماع غضبانًا ومحتجًا على نحو غير مفهوم بينما يجلجل صوت د: جعفر عبد رب النبى ببراعة خبير ليتحول المعترض حسبما قال إلى كاره للسلام الدولى مندفع، وبكل أدب ونعومة وبرود أعصاب شرح للحاضرين ما يدعم وجهة نظره:

ـ الرجل كما هو باد لكم، عجوز متهالك أحيل للمعاش وقد كان لسوء حظه يتولى إدارة نفس مؤسستى، لكنه خان الأمانة واختلس من عهدته وعهدة زملائه، فتولت إدارة الشئون القانونية التحقيق معه، ولولا تعاطفى بشكل إنسانى معه لرفعت أمره للنيابة الإدارية والجهاز المركزى للمحاسبات ومباحث الأموال العامة، أو المخابرات العامة ومباحث أمن الدولة أو المدعى الاشتراكى وغيرها وغيرها من أجهزة المحاسبة وتوقيع الجزاءات، لكنه تباكى وقبل أيادينا فعفونا عنه وأحلناه للمعاش قبل سن المعاش.

هتف من يعملون بالمؤسسة مع ضيوفها بحياة أ. د «جعجع» وشكروه على إنسانيته الفياضة وتعاطفه مع كبار السن فى زمن تتردى فيه الأخلاق، كان فى القاعة واحدًا من الشباب الذين التقوا بالرجل فى المقهى تلك الليالى العجيبة وكان يهز دماغه ويفكر أنه

لا بديل من اللجوء لمنظمات حقوق الإنسان ووكالات الأنباء العالمية، وفى الأيام التالية نشرت عدة تحقيقات صحفية عن عجوز اختفى تمامًا وكأنه كان خيالاً أو وهمًا تجسّد ثم تبخّر لكن د: جعجع وجدها فرصة ليرد فى عدة حوارات صحفية أنه لا يعرف عن أى عجوز يتحدثون ولا هو مسئول عن مصائر البشر من رواد مؤسسته وهم آلاف مؤلفة، وعلى شاشات التلفاز كان يطل باسمًا أو ساخرًا، متمكنًا ومتماديًا فى الهجوم على من يتجاسر ويفكر فى توجيه أى اتهامات وضعية مخفية بين سطور تحقيقات صحافة صفراء بارعة فى الابتزاز، وبدا لناس المدينة أن المسألة من أولها لآخرها لعبة، أو سيناريو محبوك يهدف لتزويد مساحة الكتابة فى الصحف عن مؤسسته إلى جانب أنه يطل عليهم كل يوم من شاشات التلفاز بطلعته البهية ليؤكد للناس فى كل مرة أنه مشغول مشغول وأن مؤسسته ستخسر فى حال عدم وجوده فيها، لترتيب احتفاليات أو مؤتمرات جديدة بدلاً من الرد على هذه الحماقات من حزب أعداء النجاح الكارهين والمتآمرين، مؤكدًا أن لديه مفاجأة كبرى ستخرس الألسنة، وسوف يظهرها فى الوقت الذى يراه مناسبًا، لكن شيئًا من هذا لم يحدث إلى حد أن الناس تشككت أن وراء هذا السيناريو الممطوط كذبة كبيرة أو مجموعة أكاذيب، لعل البعض قال للبعض إن الرجل لم يكتف بمؤسسة فاشلة وتسلّط من خلال الصحف والتلفاز على عقولهم ووعيهم وذاكرتهم فى نفس الوقت، فقرر البعض مقاطعة الصحف والمجلات واتفقوا على عدم فتح أجهزة التلفاز فى أوقات البرامج التى تستضيفه

ليقول نفس العبارات بنفس الإيقاعات وبلا كلل أو ملل، لعل تقاطيع الرجل العجوز الذى اختفى تاه من ذاكرة الناس، لكنها لم تغب عن ذاكرة مجموعة التقى بهم فى عدة أمسيات، سأل أحدهم المجموعة سؤالاً عابرًا أربكهم جميعًا:

- هل صحيح أن الفراعين كانوا يكشطون بآلات حادة أسماء من سبقوهم، ويكتبوا أسماءهم على نفس الآثار؟

التفتوا نحوه وتحيروا فى الرد على سؤاله المستفز فهز رأسه ونظر للساقى وقال بينما يشير إليه باسمًا:

- واحد شاى مع «واحد جعجع وصلحه».

***

بدايتى معه كانت زمالة من بعيد لبعيد، بينى وبين نفسى كنت أراه ولدًا عاديًا يجاهد لكى يبدو للأساتذة مجتهدًا من خلال طرح أسئلة توحى بأنه قرأ وفكر وانشغل ثم جاء ليخرج من متاهته بمساعدة الأستاذ أو الأستاذة، أحيانًا كنا نتبادل نظرات استخفاف مع بعضنا البعض وأحيانًا كنا نشعر بالغيظ لأنه بدا للمسئول مستغيثًا من الغرق فى متاهات العلم ثم حصل على طوق النجاة على شكل عبارات متعاطفة مع حالته تنطقها الأساتذة أو ينطقها الأستاذ الذى تحول إلى منقذ، ولا بد أن بعض الأستاذة عرفوا اسمه قبل كل الأسماء، كان بحسابات بعضهم وسيلة لتوصيل الأفكار، يوقفه الواحد منهم بإشارة أو بالاسم ويبدأ بإجابة سؤال يتوقع أن يسأله أو كان قد سأله الواقف بأمره، نتضاحك من

سذاجة السؤال أو ننبهر بوعى الأستاذ وسخريته الخفية من زميلنا، أحيانًا كنا نشعر بالغيرة منه بلا مواربة لأنه يأخذ من اهتمام الأساتذة ما لا يستحقه على حسابنا جميعًا، لأن اسمه كان أول اسم نحفظه بشكل جماعى: سعيد كمال أو «سك سك» كما أشاع عنه واحد من الزملاء الظرفاء ما زلت أتذكر ملامحه وأنسى اسمه، كان «سك سك» بحسب ما أشاع زميلنا القديم وأوضح هو اختصار للاسم والسلوك فى ذات الوقت، ثم يفسر زميلنا القديم مقصده ضاحكًا وساخرًا:

- «سك» الأولى اختصار لاسم سعيد كمال والثانية اختصار للمقدمة التى يبدأ بها أسئلته العبيطة وهو يقول: سؤال كمان لو سمحت سيادتك .. سؤال كمان».

كنا نضحك من قلوبنا ونحن نتمثله واقفًا يسأل وكأنه يعلن عن وجوده، نضحك حتى تلمح عين أى واحد منا شبحه الآتى من بعيد فنحاول أن نلملم ضحكاتنا حتى لا تنفلت غصبًا وتجلجل أكثر، الغريب أنه كان يبتسم لنا ويهز رأسه قبل أن يقول:

- أراهن أننى أضحكتكم فى آخر محاضرة، أنا نفسى رغبت فى الضحك على نفسى وخفت من الأستاذ.

نتبادل النظرات المندهشة وربما نشعر بالخجل أو لا نتحكم فى مشاعرنا ونواصل الضحك فيشاركنا متظاهرًا بالتسامح معنا، الغريب أن غالبية الأساتذة كانوا يسمحون له بطرح ما يعن له من أسئلة تعاطفًا أو تواصلاً مع الطلبة من خلاله باعتباره زميلاً لهم

يفكر بنفس مستوى غالبيتهم ويعبر عن بعض ما يدور فى أذهانهم ولا يجرؤون على طرحه فى شكل أسئلة، كأنه كان مندوبنا أو الناطق بلساننا والمفوض بإتاحة الفرصة للأستاذ ليبدأ محاضرته الجديدة بالرد على سؤال كان قد طرحه سعيد كمال ولو بالسخرية منه بحسب مستوى السؤال ومستوى الأستاذ.

كانت تلك هى البدايات التى لم تنمح من الذاكرة، ربما لأنها كانت تدور بعقولنا الشابة فى مرحلة الأحلام البسيطة أو التفكير فى المستقبل المأمول، لكن المصائر اختلفت بعد ذلك، صحيح أن سعيد على المستوى العلمى كان يسكن منطقة البين بين فى أحسن أحواله، وصحيح أنه كان يتعثر فى مادة أو مادتين ويحملهما معه للعام الدراسى التالى، لكنه كان يجتاز عثرته السابقة ويتعثر فى مادة من المقرر الجديد التى تخص العام الدراسى التالى، لكنه فى عام التخرج فاجأ الجميع بالنجاح فى كل المواد والحصول على تقدير يتيح له لو شاء أن يلتحق بالدراسات العليا فلم يتردد وشاركنا باعتباره من أوائل الخريجين وسجل اسمه فى الدراسات التمهيدية للحصول على درجة الماجستير، كنا نتسابق دون ترتيب مسبق لنجتاز تلك المرحلة فى أقرب وقت ممكن بينما هو متباطئ بحسابات الجميع، نسجل موضوع الرسالة الواحد تلو الآخر بينما يتعلل بأنه ينوى دراسة موضوعه بدقة قبل أن يختاره وينغمس فى تفاصيله، ينقطع أحيانًا لفترات عن حضور تلك الجلسات التى تجمع طلبة الدراسات العليا مع الأساتذة لتبادل طرح الأفكار من

موقعين أكثر قربًا من أيام الدراسة المزحومة التى لا تتيح لهم معرفة قدراتنا بشكل موضوعى، وفى واحد من اللقاءات التى تغيب فيها سعيد كمال سألنا أحد الأساتذة عنه وإن كان أى واحد منا على اتصال به أو يعرف سكنه؟ نفينا بشكل جماعى ونحن نتبادل النظرات المندهشة، عقب الأستاذ قائلاً لجميع الحضور:

ـ سعيد كمال «ضجة حول لا شىء» على رأى شكسبير.

تضاحكنا ونحن نتذكر هيئته وتقاطيع وجهه، نتذكر قدراته على اختراق الصمت والإعلان عن وجوده وكأنه يؤكد فى كل مرة إيمانه العميق بمقولة «أنا ومن بعدى الطوفان» ولأن التعليقات الساخرة عليه كانت جاهزة وقابلة للاستمرار فقد اندفعنا بشكل جماعى بالكلام الساخر عنه بقيادة زميلنا الذى أطلق عليه اسمه المختصر، ولولا تنبيه أستاذنا الوقور المتحفظ ما سكتنا لنسمعه وهو يلومنا على تلك الهمجية المخجلة والتى هى نوع من الاغتياب الذى لا يليق بمشاريع علماء، شعرنا بالخجل بينما كان ينظر إلى الأستاذ الذى فتح موضوع سعيد كمال على هذا النحو غير اللائق فى جلسة علمية، لكن الآخر برغم الصمت بدا لنا عارفًا بأمور خفية عن علاقته بالأستاذ المتحفظ الذى راح يعظنا ويحدثنا عن الأخلاق الحميدة ليسكتنا فنكتم ما كان جاهزًا للخروج على الألسنة ونزيح صورة زميلنا من عقولنا حتى لا يورطنا فى أزمة مع أستاذ مسنود على صلاحيات علمية أهلته لرئاسة القسم بعد ذلك بفترة وجيزة.

كنت قد أجهدت نفسى فى البحث وتجميع المادة، وكان أستاذى داعمًا لقدراتى وقادرًا على تحفيزى لبذل المزيد من البحث والتنقيب فى المراجع والمصادر ومحاولة استقراء المخبوء بين صفحات التاريخ المكتوب والموروث، كان يزرع بداخلى الرغبة فى إضافة جديدة تخصنى مؤكدًا أن أى رسالة علمية تخلو من إضافة جادة تخص الباحث فإنها لا تستحق أن يتقدم بها للحصول على الدرجة العلمية، لعله حرضنى بقصد أو بغير قصد لأتعرف بحسب ما أستطيع على تفاصيل موضوعى وأحاول أن أستكشف وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بين الماضى والحاضر، كنت أيامها مفتونًا بالتاريخ وساعيًا للتعبد فى محرابه لو كان للتاريخ محراب، وبينما أخط آخر السطور فى مشروع رسالتى لأعرضها عليه وأطلب منه تحديد موعد المناقشة فجعت فى أستاذى الذى قرر الموافقة على عرض كان يرفضه فى السابق بشدة ليسافر أستاذًا فى واحدة من جامعات البلدان الإفريقية التى كان يسخر منها فى محاضراته وحواراته الشخصية معى إلى حد أنه كرهنى فى فكرة السفر للعمل خارج حدود الوطن، كنت من داخلى مصدومًا بسبب قراره وخجلانًا من سؤاله عن الأسباب التى بدّلت رأيه رأسًا على عقب، أبديت له فى آخر لقاء بيننا أننى مستعد لانتظاره حتى تنتهى مدة الإعارة ويعود بسلامة الله، لكنه طالبنى بأن أواصل مشوارى بعد أن يتحول الإشراف إلى الأستاذ رئيس القسم، كنت أشعر بالدوار والتوهان وأنا نازل من سلم عمارته حاملاً تحت إبطى أوراقى التى كنت قد وضعتها أمامه على سطح مكتبه فى تواضع التلميذ فى حضور

أستاذه بنية عرضها عليه، لكنه أزاحها بعيدًا عنه وكأنه يزيح جرثومة أو مرضًا معديًا تجسد فى مشروع رسالة علمية كتبها تلميذ مفتون بوعى أستاذه الذى تنبأ له بمستقبل علمى زاهر، لعلنى فى تلك الليلة قررت دون تدبير مسبق أن مشوارى فى سكة الجامعة لا بد أن ينتهى عند هذا الحد، ولعل شيطان الشعر الذى كنت أفر منه وأسكته غزانى فكتبت فى نفس الشهر قصيدة رثاء فى رسالتى العلمية بعدما خسرت أستاذى المسافر، ولأنها أعجبت شاعرًا موهوبًا سمعها منى فى ندوة مفتوحة وقال إنها كانت مشاعر شاعر مبشر كانت تتخفى فى داخل الداخل تفاعل معها وأوصانى على رؤوس الأشهاد بأن أواصل، لعله دون قصد دعانى لأن أنشغل بالشعر أكثر وأنسى أو أتناسى مشروع الرسالة.

***

لكن «سك سك» واصل مشواره ودعانى بعد عامين أو ثلاثة لحضور مناقشة رسالته لنيل درجة الماجستير، صحيح أن المناقشة كانت مسخرة كشّفت لنا جهل «سك سك» بمناهج البحث التى درسناها وقتلناها بحثًا كما بدا لنا وأكد أعضاء لجنة المناقشة فأتاحوا لمن كانوا يشهدون ويسمعون الفرصة للسخرية منه لولا مساندة واستهجان رئيس القسم المشرف على رسالته من تلك الأساليب الهمجية فى التلقى والحوار ففرض على الكل صمتًا مخزيًا، لكنه حصل على الماجستير الذى لا يستحقه بحسب ما شاع أيامها بسبب التردد المتودد على أستاذه الذى ساعده ليحصل

بعد عام تقريبًا على وظيفة معيد بنفس القسم، لعلنى لم ألتق به لعدة سنوات لأننى لم أكن أتردد على الجامعة بعدما قررت فى مناقشة ساخنة مع نفسى بصوت مسموع فى منطقة شبه زراعية خالية تمامًا وأنا وحيد وسط عتمة نسبية يخفف حدتها نصف قمر بين الهلال والبدر، قرر ليلتها ولم أتراجع عن قرارى بأن أنسى مسألة الدراسات العليا ومشوارها، متعللاً أو غضبانًا من أستاذى الذى سافر ليتيح لى فرارًا يتشابه مع فراره من إكمال مشواره، ربما كنت من داخلى أرفض أن يداوينى أستاذ بديل، ولعلها كانت غلطة هينة أو ببساطة حالة اختيار بمحض الإرادة بين الشاعر ودارس التاريخ، ولأن التاريخ المعشوق بحساباتى أيامها لم يكن محصورًا فى درجة علمية تسوغ لى العمل فى سلك التدريس بقدر ما كان وسيلة للنظر إلى عالمنا فى مراحله العتيقة والقديمة والوسيطة والحديثة فى آن واحد، وربما لأن المراجع كانت متاحة ومتوفرة ولأن العمل الذى كنت قد التحقت به كان قادرًا على اجتذابى لأدور فى مداره، ولعل الشعر كان هناك فى الأفق البعيد إمكانية لتواصل أكثر مع الناس ومشاعرها وهمومها وأحلامها، فكرت على هذا النحو أيامها وبررت لنفسى التعامل مع الموقف الصعب الذى واجهته بعد سفره بحساسية أو صلابة رأى وجرأة لاختيار المشوار الأكثر صعوبة أو الأكثر ملاءمة لحالتى، صادقًا مع نفسى ومعترضًا على كل الاعتراضات التى واجهتنى.

***

مالى «بسك سك» وما كنت أسمعه عنه؟ بداياته بالنسبة لى كانت مقدمات لما هو آت فى مستقبل الأيام لأنه حصل على الماجستير بمساعدة أستاذه وقام بالتدريس معيدًا فى نفس الجامعة لعدة سنوات شهد له الجميع خلالها بحسن السلوك رغم مستواه العلمى المتواضع، لكنه حصل بعد ذلك على الدكتوراه بشكل لائق فترقى وصار أستاذًا مساعدًا لنفس أستاذه فشهد له الزملاء وهو الأكثر أهمية بالولاء التام لأستاذه إلى الحد الذى جعله يضحى بمنصبه كمدرس مساعد بالجامعة ليتبعه وقد ترك الجامعة بعد أن عين رئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة مرموقة فسحبه وراءه ليكون مديرًا لمكتبه وأمينًا لسره كما كانوا يؤكدون، ولا بد أن راتبه وحوافزه ومخصصاته الأخرى كانت أكثر بكثير من تلك التى كان يحصل عليها فى الجامعة، ولا بد أن «سك سك» راهن منذ البداية على الورقة الرابحة لأنه بمرور الأيام انفتح له طريق الصعوة بمساعدة نفس الأستاذ الذى تخطى الكل وعينه بعد عامين ونصف نائبًا له فى نفس المؤسسة ونفس الأسبوع الذى بلغ فيه الأستاذ سن المعاش متوهمًا أنه سوف يحصل على تجديد استثنائى لكنه لم يحصل عليه، لكن النائب فى مثل هذه الحالات يقوم بكل العمل، ولأن العثور على رئيس مجلس إدارة جديد يحتاج إلى بحث وتمحيص واستكشاف لخريطة الكفاءات المتاحة فى أى مجال نادر أو حساس فى ذات الوقت فإن الدكتور «سك سك» لم يتوان عن بذل كل جهده ليحظى بثقة الوزير المختص الذى أصدر قرارًا بانتداب نائب الرئيس رئيسًا لمجلس إدارة المؤسسة كمرحلة

اختبار اجتازها ببراعة وثبت فى مكان أستاذه الكبير ولبس قميصه ورسم خطاه كما كانوا يؤكدون.

لكنه حدث ما لم يكن يخطر ببالى أبدًا عندما أجريت تعديلات جديدة شملت شركتنا العريقة لتكون تابعة للمؤسسة التى يترأسها زميلى القديم، صحيح أن المبنى كان بعيدًا عن المبنى، وصحيح أننى لم أفكر فى الذهاب إليه لتهنئته والإعلان عن وجودى فى مكان يتبعه خجلاً أو قلة مرونة، لكن ثرثرة البعض لتأكيد علاقتى السابقة «بسك سك» وكيف أنه كان زميل دراسة انفتحت له سكة الطلوع وصرنا نتبعه كانت تقلقنى وتشعرنى بالخجل، لكنهم فى الإدارة فكروا فى تكليفى بأن ألقاه فى مهمة عمل رسمية ولم أتمكن من الاعتذار بسبب تشجيعهم لى قائلين إنها فرصة لتهنئته ما دمت لم أفعل، لا بد أننى استسلمت ووافقتهم، حملت الملف المطلوب عرضه عليه شاعرًا بنوع من الاستخفاف القديم الممزوج بالخجل منه، مطمئنًا لإمكانية إنجاز المهمة التى كلفونى بها بكل اليسر، لكنه خيب أملى وتجاهل وجودى فى انتظاره بحجرة سكرتيرته الحسناء التى مشغولة عنى أو تتظاهر بذلك لأنه يتشاغل عنى على غير توقع منها ومنى، قلت لروحى أعزيها وأتشكى بينى وبين نفسى من زمن تاهت فيه الأصول وتكبر الزميل القديم الذى لمع نجمه وصارت صورة تطالعنا على شاشة التلفاز وفى صفحات الصحف اليومية:

- أنت غلطان يا ولد، وضعت يدك على الكوم الخسران.

كان وجهه الذى زاملته وعرفت حكاياته فى ستينيات القرن الفائت ماثلاً أمامى، وكنت أنا فى قاعة الانتظار التى تشرف عليها السكرتيرة متألقة الطلعة ذات الشعر الذهبى المسترسل بكل يسر التى أكدت لى مرارًا أنها كتبت اسمى فى كل ورقة قدمتها إليه وسط أسماء كل من جاءوا قبلى أو بعدى وجلسوا ينتظرون مقابلته وأنا بينهم، يبادلوننى خلسة نظرات مستكشفة ومستطلعة تصل إلى مستوى الإحساس بالتنافس غير المعلن وكل منهم يتمنى لو فاز قبل الجميع بلقاء الدكتور، كانت تدخل عقب كل جرس صادر من الداخل وتخرج لتنادى اسمًا ثم تقوده بترحاب شديد قائلة له بينما تفتح الباب الفاصل بيننا وبينه:

ـ تفضل سيادتك، سيادة الأستاذ الدكتور فى انتظارك.

يدخل الضيف بعد أن يتأمل وجوهنا وكأنه يعلن أفضليته علينا جميعًا، يأتى زوار جدد فينتظرون وأنتظر معهم، يتبادل المعارف عبارات خافتة ويبدى البعض دهشته أو استنكاره لأنه لم يسمح له بالدخول قبل الضيف الذى دخل، وكانت المسألة أكثر قسوة بالنسبة لى، صحيح أننى لم أواصل مشوارى فى نفس سكته أو طريقته لكنه كان اختيارًا لم أندم عليه أبدًا فهل دفعت ثمنه غضبًا مكتومًا ودهشة فى تلك الظهيرة على الأقل؟ ولولا أن تأشيرته كانت لازمة وضرورية ما كنت لأتحمل وأتحامل على نفسى مع كل من كانوا ينتظرون لأننى لو تعجلت فسوف أعود لزملاء العمل بخفى حنين كما يقولون، وربما أتحول إلى موضوع للسخرية من شاعر

يعايش وهمًا بأن له علاقة لا يزال بواحد من المسئولين المرموقين ممن يمسكون كل الخيوط التنفيذية فى أياديهم، ولأنه من غير تأشيرة الواحد منهم فى بعض الأحيان يستحيل تنفيذ أى شىء.

لا أدرى كيف صارت المؤسسة فى غفلة منا هى «سك سك» بغض النظر عن مئات العاملين والمديرين ورؤساء الأقسام فى الشركات التى صارت تتبعها وتتبعه، وعندما يتوقف مصير البنى آدم على تأشيرة من بنى آدم لا يعرفه فربما لا يكون الأمر عسيرًا على النفس وقاسيًا بنفس الدرجة لو عرفه فى السابق طالب اللقاء أو التأشيرة، وإذا كان من ينتظر عارفًا بأن من يجلس فى الداخل متحصنًا وراء مكتبه كان شخصًا اعترف له مرارًا فى ساعات الصفاء والمصارحة بأنه متواضع القدرات والأحلام بكل الحسابات، ولأننى زاملته لسنوات فإن المأزق كان يتساوى مع المصيبة أو النكبة الكفيلة بتوقيف النبض فى قلب الشاعر السليم وكلما طال الوقت يومها أسأل نفسى إن كان من أنتظره هو نفس الشخص الذى زاملنا فأشبعناه سخرية والذى كان يعلن بمناسبة ومن غير مناسبة أنه إنسان بسيط يخطط لمستقبل بسيط يكفيه شر الحاجة، كنت أتعاطف معه أحيانًا وأشفق عليه وأتمنى أن يجتاز أزمته ويثق فى نفسه فلعله يتحقق فى مستقبل الأيام لأن السعى واجب على الإنسان والحيوان والطائر والكائنات الساكنة أعماق البحار والأنهار والمحيطات بمثل ما هو واجب على الحشرة والجرثومة المخفية، فقد بررت له سعيه التحتانى واختياره للتبعية الكاملة زمنًا كان كفيلاً بوصوله إلى ما وصل إليه متواطئًا بالصمت

عن كل ما كان يصل إلى أسماعنا عن سلوكياته التى صارت بحسابات الكثرة ممن يتعاملون معه منفلتة تمامًا وربما مفضوحة، المسألة اختيارات قد تصيب أو تخيب بحسب وجهة نظر النفر فى الحياة أو فكرته عن الصائب والخائب فيها مقارنة بوجهات نظر أخرى متناقضة أو متباعدة عنه.

غادرت المكان بعد ساعة ونصف من الانتظار القهرى والتأمل القلق وقلت لروحى بينى وبين روحى وأنا خارج من مكتبه مستعد للانقطاع عن العمل عنده إذا لزم الأمر:

ـ «كنت يا ولد تنتظر شخصًا لا يستحق كل هذا الانتظار، صحيح أنك بينما تغادر مؤسسته كنت تعرف أنه من الممكن أن تخسر وظيفتك أو حقك الشرعى فى مواصلة العمل فى نفس مكانك، لكن لا يهم لأنه هناك بالقطع فى مؤسسات المدينة الأخرى من يحتاجون إلى خبرتك المكتسبة، ورب ضارة نافعة كما يقولون، ولأنك لو كنت طيعًا أكثر أو أليفًا بحسابات أساتذتك القدامى لصرت مثل هذا الشخص الذى لم يلتق بك عمدًا والذى لابد أن تقاطيعه تأججت بالنشوة بينما يتخفى وراء بابه مؤجلاً بقصد مقابلتك لأطول فترة ممكنة، تتحول أنت رغمًا عنك إلى خيال «مقاتة» أو ظل رجل قاعة تلتهب أعصابه وخلاياه ويتوتر، ولو كنت فى السابق مثله تؤمر فتطيع بمرونة لحصلت على مركز مريح ودخل يليق بك كشاعر مؤدب أو أستاذ مرموق يحظى بتودد تلاميذه ولتغيرت أحوالك تمامًا مثله، ثم أنك رأيت أمثاله يتأرجحون على الكراسى الدوّارة وقتما تنحط

المؤخرة الطيّعة والطرية فوق المقعدة المسنودة على المحور لتدور وتلف على هوى القاعد فوق القاعدة، وماذا لو كنت اخترت سكة «سك سك» الذى زادت بحسب الشائعات أرصدته فى البنوك خارج وداخل الحدود؟ وهل كان هذا الذى تعرضت له مرتبًا قد دار بخلده طوال مدة انتظارك وهو العارف أنك شخص قابل للاستفزاز؟ هل كان يحق له تجاهل الزمالة القديمة وأن يستمتع بانتظارك على باب مكتبه محروسًا بتعويقات تفتعلها سكرتيرته أو مديرة مكتبه وحارسة بابه التى أمرها بالقطع فى الخفاء فنفذت الأوامر بعماء يتيح لها الاستمرار فى المكان لتحصل على رضاه وبدل السهر والجهود غير العادية والمكافآت سواء كانت منظورة أو غير منظورة بتعليمات وأوامر من زميلك «سك سك» الذى جلس فى نفس مكانها فى بداياته خارسًا لباب أستاذه القديم؟ هى على كل حال اختيارات قديمة أو استعدادات وقد اخترت بحسب استعدادك وعليك أن تتوقع التعويقات والتعطيلات والاستخسارات التى عرفتها من بعيد ورصدتها لتكتبها سطورًا موزونة لشاعر متأمل أو باحث منفلت يقول ما يتأكد منه دونما تردد، ولأنك عرفت أسراره فقد صرت مكشوفًا له أيضًا ويحق له أن يضعك فى خانة الخصوم القدامى وعليه فإنه لا يستحق كل هذا الغضب».

***

هل كنت أنا واعيًا وقادرًا على التنبؤ بمصيره بينما أشرح لزملاء العمل والأصدقاء ما يمكن أن يحدث له فى الغد القريب؟ ربما لأن

نبوءتى تحققت وبدلت آراءهم عنى إلى حد أنهم حسبونى من أهل الخطوة أو العارفين ببواطن الأمور الذين يلزم أن يتعاملوا معهم بكل الحذر بعد أن كانوا يتندرون على أفكارى فى وجودى ويقولون إننى أعيش بمشاعر شاعر عبيط ومفصول عن كل ما يدور حوله، أتشكك أحيانًا فى معلوماتى المؤكدة بأنه ليست هناك نار من غير دخان وأن البداية غالبًا ما تكون ثرثرات متفرقة مثل تلك التى كان يطلقها زميلنا القديم الذى منحه اسمه المختصر بهدف إضحاكنا، لكن مخازيه كانت تتواتر وتصل إلى آذانى ملفوفة فى حكايات ساخرة ونكات فيها خفة ظل ممرورة قبل أن تنشرها الصحف فأتذكر كيف كان فى السابق يعترف لى فى ساعات الصفاء النادر بأنه كان يحمل مكرها حقيبة أستاذه ويمشى خلفه تابعًا طيعًا ليستفيد منه، وكيف أنه كان يحتمله ويسمع كلماته التى يلوى بها لسانه فى المنتديات برطانات مخلوط فيها العربى بالإفرنجى ويسحب منديله ليجفف عرقه بينما ينال بعض التصفيق، أتذكر كلماته وأقول لنفسى إن أستاذه كان أشرف منه بكل الحسابات وإن كان قد أخطأ بسوء اختياره للتلميذ غير النجيب الذى تبناه وسانده بكل طاقاته لكنه خيب كل رجاء فيه لأنه بعد تلك المقابلة التى لم تتم بيننا بعدة شهور طلبت أجهزة الرقابة إيقافه عن العمل وقيل إنه قد توفرت لديها كل المستندات التى تؤكد الشائعات بأنه ارتكب أخطاء لم تخطر ببالى فى أعتى الكوابيس، نشرت بعض الصحف حيزًا من الفضيحة فتحول إلى القضاء ليبحث الأمر ويقول كلمته فأسعد ناس وأحزن ناس، وما زال ينتظر وننتظر

نتيجة المحاكمة متعددة المراحل، وقاه الله ووقانا من سوء النوايا التى تطاردنا فننفضها من عقولنا وآذاننا ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

***

ها أنذا أجلس القرفصاء منذ آلاف السنين كما تعرف أنت ويعرف الغرباء، قانعًا بالقليل وأقل من القليل، ومؤمنًا بدورى فى تسجيل بعض ما أشهده وأعترض عليه أو أتقبله، لكننى كلفت نفسى بأن أكون صادقًا مع نفسى أولاً، ربما طموحًا مشروعًا لأن أواصل وأنجح فى التواصل مع من يعيشون زمنى، أو الآتين فى مستقبل السنوات، سنوات سوف تأتى رغمًا عن إرادتك وإرادتى بعد أن ينتهى زمنك وزمنى، عجافًا مثل زمان عشناه كرعايا وحكماء يجلسون القرفصاء، ويقتاتون من مردود كتاباتهم للبرديات وبحسب الأحوال بلا تقنين أو تحديد لتكاليف صياغة الصفحات ومردودها الهزيل مقارنة بأثمانها، ولأن المسألة تبدو أرزاقًا محسوبة فى أدمغة من يهيمنون من أهل الثقة، الأوفياء لأوهامهم ومطامعهم، وبإراداتهم يمنحون أو يمنعون، يزودون أو ينقصون المردود الذى يتيح للكائن الحى من أمثالى أن يعيش، ربما لأنهم أحيانًا لا يستحون وربما يبرعون فى البخل ليكون الفائض من أنصبتهم المهربة أو المسربة إلى خارج الحدود، وعندما تتكشف الأمور أو يتزايد اللّغط حول أى واحد منهم بواسطة أى واحد منهم أو أحد أعوانه، يزيحونه علنًا ويأتوا بآخر له نفس المطامح أو

المطامع، فيكيدون ويرتبون ويزيحون ويسقطون من يجلسون على المقاعد الدوّارة، ركلا لأعلى أو نفيًا وحبسًا فى غياهب سجون وهمية تتحول أحيانًا لمنتجعات للترفيه أو للراحة والتقاط الأنفاس، يطلعوا من تحت الأرض أو يقفزون بمظلات غير مرئية، يسجدون أولاً على أبواب الخدم وعمال المطابخ وأنصاف الكتبة المأجورين القابعين فى الأركان، وعن يمينك أو يسارك يتواجدون ويجعجعون بلا يقين، ومن جديد يحاولون أن يتأكد لك بعد الطنطنات، أنك ارتحت وبدّلت وغيرت وصار الزمن الذى نعيشه معًا هو أفضل الأزمان، تتعايش مع أوهامك مثلما أعايشها واثقًا أننا نعيش ويحق لنا أن نتباهى ونشعر بالزهو سويًا أو بمفردك لأنك عندما تشير بإصبعك يستجاب لك على الفور فى غالب الأحوال، لأنك فى واقع الأمر سيدهم وولى نعمتهم وقاهر الهكسوس، وأنا ما زلت كاتبك الجالس القرفصاء، الساكت لا ينطق لأنهم يلوحون لى بإشارات لا تحتاج إلى مترجم من إحدى اللغات السامية التى يعشقونها، غير لغتنا التى تعلمناها سويًا فى بدايات العمر، وحاولنا أن نظل لها أوفياء.

ولأننى قرأت معك وعنك وتأملتك من بعيد أو من قريب، ورأيتك باسمًا ببراءة أو راغبًا بالفطرة فى بعض الأحيان فى العطاء، قلت لك بين السطور المسطورة أن الحياة كانت ميسورة أكثر وممكنة أكثر، فى سنوات لم أجربها فى غير البرديات المكتوبة على امتداد العصور، لأنى من خلالها تعرفت أو حاولت أن أتفهم بعض ما كان يجرى فى تلك الأزمنة، لعل ولعى بالتاريخ المكتوب المروى على

ألسنة الناس، كان زادى وزوّادى ودافعى لأن أقول لك أو أسجل، وأن أتحامل أيضًا على نفسى فأضنيها بلا مقابل، متعاليًا كمالك لم يمتلك فى زمنك الذى هو زمنى ما يمكّنه من العيش فى مستوى الكتبة المأجورين من أنصاف الأنصاف، وقد زين أتباعهم صدورهم بأوسمة ونياشين ووشاحات براقة وأردية تلفت إليهم الأنظار، متعفّفًا وأنا العارف أننى كيان قابل للفناء بالجوع الفعلى، لكنه يرفض بعناد فلاح أصيل مثلك، أن ينحنى طلبًا للزاد المجانى أو الزوّاد من أنصاف المانحين غيرك، ويا من عايشتك نصف عمرى، هو مشوار محسوب بالإرادة الخالصة وبكل ما خطته أقلامى بإخلاص وكان لها حظ البقاء فى ذاكرة شرفاء تعايشت معهم وعشت زمانهم كما عايشونى وأنا أجدّف بمجداف لا يكّل ولا يتكاسل، ويواصل ويواصل، قانعًا بأن هذا هو دورى فى تلك الحياة، ربما لقناعة ثابتة أن الفناء آت لى ولك ولكل أتباعك المرضّى عنهم لأسباب أعرفها وتعرفها أنت، ويتقوّل بها كل من يتفكّرون من شرفاء وبسطاء أهل هذا البلد، فى المدن المزحومة التى يشترى ناسها قوت يوم بيوم، ويتباكون لأن ثمن لقمة العيش صارت عسيرة المنال، أو أولاد الفلاحين الساكنين للقرى، التى لم يسمع أعوانك عن أسمائها إلا فى صفحات الحوادث أحيانًا رغم أنها تنتمى لزمن الفراعين، أو عندما يرتحل البعض منهم فرارًا متباعدًا إلى بلاد غير بلادك فيغطسون فى دوامات بحار بعيدة، ويأتوننا أبدانا غير مكفنة كما اعتدنا لندفنهم فى مقابرنا ونتباكى على الأطلال، أو لا يأتون على الإطلاق، وتكبس ذكرى ضياعهم بقسوة

على قلوب أهاليهم ونسائهم وخلفتهم ممن اكتتوا بالنار شوقًا لإطلالة أخيرة على بقايا الأبدان التى التهمتها خنازير البحر، أو قروشه أو حيتانه أو تماسيحه أو الأسماك الصغيرة، أو ماتوا بالقتل غرباء فى بلاد تشبه بلادنا ولها تاريخ داسته نعال الوافدين الغرباء الكارهين لكل من سبقوهم فى الوعى بمفردات الحياة، يتمنى أمثالى أن يتاح لك حق تكليف عمال التحنيط ليقوموا بواجبهم فى استخلاص ما تبقى منهم أو استخراج ما ابتلعته الفجائع أو ابتلعتها تلك الوحوش، وأقولها لك سائلاً وراغبًا فى ردك، ماذا لو أنشأنا مصنعًا للنسيج الذى يصلح فقط لتكفين الأبدان بعد تحنيطها؟ فلعل قلبينا الموجوعين يرتاحا ويطمئنا على بدنينا فى نهاية زماننا معًا وهى بالقطع قريبة، تليق بك كرفيق عمر، وتليق بى كجالس القرفصاء فى زماننا المشترك.

فهل أخطأ أمثالى ممن حاولوا الإسهام فى حل مشكلات الحياة اليومية المفروضة علينا فى هذا الزمان ليكونوا مبعدين رغمًا عنهم؟ ومتباعدين بإرادتهم؟ ولأنهم لم يفكروا فى الخروج من تلك الدوائر المحكمة التى تحيطهم من كل النواحى، فيندبون ويلطمون الخدود فوق أوراق البردى، حالمين بأن تصل الآهات إلى مسامعكم يا من تتفهمون مفردات هذه اللغة التى ما زلنا نكتب بها حواديتنا عنكم؟ وكانت الدعوات للخروج من حدود الوطن سعيًا وراء الرزق بعيدة تمامًا عن أذهاننا، بل يمكن أن نقول معًا إنها كانت شطحًا مخبولاً، فى زمن النهر العظيم الذى فاض علينا وعليهم واحتواهم ووظّفهم وظل يجود بلا كلل لآلاف السنين، لنعيش ويعيشوا على

ضفافه هانئين بالخير العميم، وعندما تبدل الزمان ضاقت الأرض بأهلها وطردتهم، لأن بعض من عاشوا فى جنبات القرى من أقراننا صاروا يتسكعون ويقبلون العمل يومًا والبطالة أيامًا ويكابدون، وحكام الأقاليم يمرحون بزهو الجهلة فى الأبعاديات التى منحت لأتباعهم قبل زمانك وزمانى بصكوك مزوّرة دون علمى وعلمك فى زمنك أو أزمنة سبقت زمنك، حتى من أضنتهم الأمراض لسنوات وسنوات، وبرغم السعى عجزوا عن تدبير أثمان الأدوية ليصبح الشفاء من أمراض متفشية مستحيلاً، إلا على من صاروا يملكون بغير حق أو من يتسولون بعرق جباههم من غرباء وافدين وقادرين على التحكم فى الأرزاق، كثيرة هى تلك المثالب والمزايا التى يستطيع أن يحصيها كل من انشغلوا بالتدوين والتسجيل والكتابة، أو وهبوا أعمارهم ليصنعوا رسومًا وصورًا تعرض الوقائع بلا تجميل أو تشويه متعمد أو مخطط سلفًا، ربما لأن بعض الكتبة من هؤلاء الذين كانوا يجمّلون الصور فى بعض الأزمنة، تملّقًا مفضوحًا أو يشوّهونها بترتيبات وحسابات للغرباء أو الأعداء ليدفعوا أو يجبروا بعض الأعوان على الدفع لهم، وهؤلاء فى زمنك وزمنى نالوا وكلانا فى غفلة، بأشكال مباشرة أو غير مباشرة أثمان التجميل الزائف، وأثمان التشويهات الضاغطة لنيل أثمان السكوت، وحتى لا يصبح المسكوت عنه شائعًا، ويصير الواقع المعاش ضائعًا، إلا من بعض جسارات توصف فى أوساط كتبة مأجورين، بأنها حماقات وقلة وعى بلا طائل، ويتجمد من يجلس القرفصاء مثلى ساكنًا فى جزء ضيق محدود، فى حيز خانق لا تدخله شمس الله التى وهبها

لهذا الوطن، فى أرضية بناية تعالت أدوارها مشاركًا عند نفس المستوى حارسين لعقارين متعاكسين وملتصقين على نحو هندسى غريب، وعياله تتأمل رفوف المكتبات وتقلّب الصفحات التى خطّها خلال تلك السنوات، التى اشتراها الأب من حر ماله أيام كان يستطيع الشراء وهو يجلس القرفصاء قبل هذا الزمان من قوته، قبل أن يحرمهم من قوتهم المطلوب أو ثيابهم التى تليق بهم بعدما شرفوا دنياه القاسية، ليقاسوا بلا ذنب إلا إنهم خلفة لجالس القرفصاء المتودد بوفاء لا يليق ولا يحتمل، ويمر الزمان ولا يزال برغم أنه أوشك على بلوغ مطالع الثمانينيات من عمره التعيس، موجوعًا بوطنه معترضًا على الخروج منه سعيًا وراء رزق خارج حدوده الموروثة مثلما فعل غيره، لم يشأ أن يتفرنج بين من تفرنجوا مع أهل الشمال، أو يؤجر قلمه لحساب من لم تتيسر لهم الكتابة فى السابق لأنهم لم يتمكنوا من زراعة البرديات على شواطئ البحار المالحة أو الأرض القاحلة، وقد يفلح عقله فى تذكر ورواية الأحداث مثلما يفعل جيراننا وشركاءنا فى الدم والهمّ والكرب العظيم ومستباحة أراضيهم مثل من عاشوا على ضفاف نهرين، ولما يفلحا فى الدفاع عنهما عندما أتت جحافل البرابرة من المغول والتتر المحدثين، يجتاحون كل شىء قد يوحى بما فات من آثار وتواريخ مسطورة ومخطوطة بمسامير قديمة، من صنع أجداد أقوياء لهؤلاء الذين صارت بلادهم مستباحة فى زمن السكوت، ولأن السيوف أصابها الصدأ باتت فى مغامدها دونما حراك، جزء من المسألة حكمة بليدة لتستمر الحياة وجزء منها

حياءً أو خجلاً موروثًا، وقد صارت كل المربعات معزولة عن بعضها البعض وكل من يتباعد أكثر، يتوهم أنه اطمأن على مستقبل عياله وماله ما دام بارعًا فى التباعد، ومتجاهلاً دلالة تلك المواجهات التى تبدو فردية، بينما الجماعات تغط فى النوم الثقيل وفى الأحلام والأوهام، تتوالى الطنطنات باحتمالات أن تنحل قضاياهم المعلقة، أو أن يرتدى اتباع البرارة الجدد ثياب حكماء مشكوك فى نسيجها المستورد قطعًا من منتجات الأعداء.

لكن حكايتى معك لم تنته بعد، ربما لأننى سوف أبقى سادراً فى أوهامى وراغبًا فى أن تتحقق أحلامى المستحيلة، لأنك سوف تقوم من رقدتك وتنفض عنك أتربة الزمان الذى فات كله، وتقطع كل ما يحيط بك من تيل أو كتان أبيض ثم تعود إليك الروح فتتحرك مؤكدًا صدق ما قيل لك فى الزمن السابق، أنك لم تمت وأنك بعد التحنيط قمت وطاوعتنى مثلما طاوعتك طوال عمرى، فأمسكت بسيفك لتدافع عنى وعنك وعنهم ضد هؤلاء البرابرة المحدثين.

***

أحاطوا به من كل جانب، وكل منهم يتبارى ليرفع صوته أكثر ليوصله إلى مسامعه إلى حد أن اللغط جعله عاجزًا عن تمييز الأصوات أو معرفة الغرض الأصلى لكل هذا الصخب، لكنه كان محاصرًا بهم ومخنوقًا بالزحام رغم براح المكان الذى يقترب من مساحة ميدان متوسط الاتساع مقام على عمدان وله سقف، زحام

لم يعتده بهذه الكثافة إلا أيام شبابه الغض عندما كان يشارك فى مظاهرات الطلبة فى براح الميادين والشوارع الواسعة ومنهم للسماء، كان ذلك فى الزمن القديم أيام سعد زغلول وتأسيس حزب الوفد، يهتف ويرددون هتافاته أو يردد هتافاتهم ليطالب مثلهم بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، أيامها أصيب بضربة عسكرى إنجليزى جرحت حنجرته وتسببت فى حجب صوته تمامًا لعام كامل رغم أن الجرح طاب، كان يكتفى بالإشارة أو يكتب رغباته على الورق وهو يشير بخجل إلى حنجرته لكنه تجاوز أزمته وبدأ ينطق بعسر العسر، ثم تقدم أكثر بمرور السنوات بالصبر والسلوان، لكن «سينه» تحولت إلى «ثاء» بالإضافة إلى «لامه وراءه» اللتين تحولتا إلى «نون» فصارت كلماته ألغازًا تحتاج لمترجم أو عقول واعية وأدمغة صاحية تتمكن من فهمه بدلاً من الاستفسارات المتكررة التى تطلب منه تكرار ما قاله لتفهم فيتزايد خجله ويلجأ إلى اعتزال الناس رغمًا عن رغباته.

عايش فى ذلك الزمن البعيد صراعات الأحزاب على كراسى الحكم وسمع ما كان يقال فى الخفاء وقرأ ما كان ينشر عن فساد القصر والحكومات المتتالية، كان يكتب بعض المقالات أو القصائد ليعبر عن أزمته وأزمة وطنه ويسعى لنشرها أو تجميعها فى كتب على نفقته الخاصة، مسنودًا على راتبه وميراثه من أرض كان يبيعها فدانًا فى إثر فدان ليعيش معزولاً فى مسكنه ومحزونًا على حاله حتى قامت فى البلاد ثورة أجبرت الملك على التنازل عن عرشه لولى عهده، لعله فى تلك الأيام نسى عاهته ورقص لأول مرة

فى الشارع، شعر ببهجة لم يعايشها من قبل ولا من بعد فتحرك قلمه ليكتب قصائد جديدة تبشر الناس بالمستقبل الزاهر مثل غيره من الشعراء، ينشرها فينال استحسان من يقرأها، لعل ما كان يكتبه وينشره خفف من مواجع جرحه وحقق له شيئًا من التوازن وأنساه همه الشخصى وكأنما صار بينه وبين نفسه مسئولاً من غير تكليف لمناقشة الحقائق البسيطة التى يكتشفها أو يؤمن بها مع الناس، وبمثل ما كان بعيدًا عن كل الأحزاب قبل إلغائها وإلغاء الألقاب كان يعيش متباعدًا عن كل أشكال التنظيمات السياسية المعلنة والتحتية قائلاً لنفسه فى كل الأوقات أنه لا يرغب ولا يصلح لممارسة تلك الأدوار التى تعتمد أساسًا على الألسنة الفصيحة والسليمة، كان يكتفى بدور الشاعر العاطفى أحيانًا والذى يتأجج غضبًا فى أحيان أخرى ضد وجود أى شىء يتصور أنه يعوق أحلامه أو أحلام الناس فى مستقبل أفضل، وبحساباته عن نفسه كان مولده الحقيقى قد تأكد له يوم جلاء المستعمر الذى كبس على أنفاس وطنه لأربعين عامًا بالتمام والكمال كان قد عاشها لتضاف إلى تلك السنوات السابقة على ميلاده بالمعنى الحرفى فى قريته وبلاده مستعمرة لغرباء، قرأ عن أزمنة الاستعمار القديم المتكررة فى أيام البطالمة والرومان والفرس والأتراك وصولاً لزمنه المعاش ليعرف ما جرى لناسه وليته ما فعل لأن انغماسه فى تفاصيل التفاصيل فى تاريخ بلاده اختطفه من نفسه وأفقده سنوات شبابه وأحلامه الخاصة ورغبته حتى فى الزواج أو الخلفة متجاوزًا فى بعض الأحيان ما كان يشعر به من عجز فى

توصيل مطالبه أو أخباره، وكان اليأس من صعوبة تحقيق رغبته كرجل بلا عاهة يدعوه إلى التفكير فى الموت كأى كائن حى يكتشف أنه عاجز عن مواصلة دوره فى الحياة، كان قد قرأ كتابين وعدة أبحاث علمية عن فكرة الموت بالإرادة فراودته نفسه وقال لها إن متوسطات الأعمار فى البلد أقل من الأربعين عامًا وقد عاشها وتخطاها منذ سنوات فما هى مبررات الحياة؟ لعله كان يحس أيامها أنه لو واصل الحياة أكثر فسوف يفقد كل ما تبقى من ميراثه ويكابد العوز بينما يأخذ من الزمن أكثر مما يستحق لفترة لا يعلمها إلا واهب الحياة والآمر بنهايات الأعمار، لكنه على الرغم من رغبته الشريرة ضد نفسه عاش وأقبل على الحياة، وربما توصل إلى فكرة معكوسة مؤداها أنه من حقه أن يعيش ليؤدى دور الكاتب أو الشاعر من غير مساحة ثابتة ليزرع فى أدمغة الناس حلمًا أو يبشر بمستقبل، يتواصل معهم بحسب ما كان يتصور من خلال الكلمات المكتوبة ويعيش وحيدًا باختياره ومتباعدًا عنهم فى نفس الوقت بسبب ذلك الخجل الذى كان يعتريه وسط التجمعات التى تتكلم لأنه يتلعثم فى الكلام ويثير ضحكات من يستمعون إلى «سينه» التى تحولت إلى «ثاء» معاندة لا تتزحزح وإن كانت أخف وطأة من «لامه» و«راءه» اللتين تحولتا إلى «نون» فجة ومحرجة وكأنها مستعمر أبدى لا بد فوق لسانه، كان يواجه أحيانًا بانتقادات لا يملك الجرأة على مواجهتها رغم ما فيها من تشدد أو جمود فى نظر الناس، انتقادات ممن يطالبونه باستخدام كلمات قديمة أو عبارات عفى عليها الزمن وهجرها معظم شعراء عصره، لكنه كان

فى نظر البعض الآخر منفلتًا ورافضًا لفكرة الالتزام بسياسات أو قواعد ضرورية لا يحق له ما دام يكتب وينشر أن يتجاهلها ليدخل فى زمرتهم، كان محاصرًا بالتيارين المتصارعين ومصابًا بالشأثأة والنأنأة معًا لكنه اختار أن يكون وحيدًا فى هامشه المعزول ليتعايش مع واقعه الذى كان يتبدل بإيقاعات أسرع من قدراته وقدراتهم قائلاً لنفسه إنه سوف يحاول أن يكون حرًا وبشكل مطلق.

***

كان فى السنوات الأخيرة يدرك أنه بلغ من الكبر عتيا كما يقول المتفيقهون الأصلاء فى استخدامات اللغة التراثية المؤكدة الجذور والتى كان قد تخفف منها خطوة فى إثر خطوة وتجاسر على استبدالها بكلمات لها جذور شعبية تندس بين سطوره فى غفلة منه ويقدمها لمن يقرأها ممن يثق فى رأيهم قبل أن ينشرها فيؤكدون له أنها صالحة وجسورة أيضًا لكن علماء الكلام ودعاة الوحدة لم يغتفروا له مواصلة هذا الدور المعاكس لمحاولات توحيد الناس من خلال اللغة المشتركة، ينصحونه بأن يكتب بالفصحى فيهز رأسه ممرورًا قبل أن يتكلم غصبًا، صحيح أن البعض منهم كان يغتفر له «سينه» التى انقلبت «ثاءً» عند النطق إلا أنهم لم يغفروا له «لامه وراءه» اللتين تحولتا إل «نون» بشعة فيضحكون سخرية لا يملكون كتمانها فيغفر لهم ذلك أو يشاركهم السخرية من نفسه قبل أن يحاول تبرير تخففه من الفصحى، نافيًا أنه يكتب لحساب لغة

يستخدمها سفلة الناس والجهلاء المغفورة لهم عدم المعرفة بقواعد اللغة على العكس منه، لأنه كان يعرفها ويستخدمها بإتقان قبل أن تسيطر عليه تلك العامية التى تساهم فى تزويد الخلافات فى لهجات الأوطان التى يحاولون توحيدها وتأكيد جذورها المشتركة، كان فى نظر البعض منهم خائنًا للمرة الثانية لأن تلك الثأثآت والنأنأت المتواصلة على لسانه كانت تتطلب منه كتابات سليمة ليصحح وضعه فى الكتابة وقد استحال أن يصلح لسانه لكنه لم يتراجع، انقلبت موازينه وسرت رغبته فى الكتابة بحسب ما يشاء مسرى الدم فى عروقه، فطلعت عليهم تلك الأغانى الناعمة والكتابات المسطورة بين دفات كتبه التى لا تليق حتى بعواميد الصحف اليومية التى كان يطالعها فى البدايات فينتقدها بشدة، لعله صدق أن أغانيه وأشعاره تليق أكثر بعامة الناس وأنها قابلة للفهم بيسر لهم رغم أنها بلا مراجع يعترف بها علماء الكلام ممن ينكرون أصولها، أو هؤلاء الذين كانوا يتشدقون بضرورة الوحدة، لكن لغة العامة ناوشته كعذراء سافرة تفتن العابد، فوقع فى هواها وتعبد فى محرابها بالكتابة على هواه وهواها، راضيًا أن يعيش مكبوسًا فى مناماته الطويلة التى لابد أن تنتهى بصحوة أو هزة تدعوه لأن يفيق فيفيق.

***

فى أيامه الأخيرة كان يدعى أنه يستطيع أن يميز الحلم عن الواقع، بل يؤكد لمن يلتقى بهم أنه يستطيع أحيانًا أن يصنفها ما بين حلم

وكابوس ومنام وغفوة طارئة أو رؤيا خاضعة لسرحات خياله الجامح الذى لا يكف عن التحول بين الأماكن الكائنة وراء المساحات المفتوحة التى يستحيل الإلمام المؤكد بما يمكن أن يكون وراءها فى البعيد خلف المجرة أو المجرات المكتشفة أو المحتملة أو المجهولة، وكانت جولاته فى الزمان أيضًا بلا حدود، لم يكن يكتفى بالتاريخ المكتوب المزحوم بالأحداث والأبطال والزعماء والملوك والقادة والشهداء والمتآمرون والخونة ولا حتى التاريخ المتخيل لبدايات الوجود الإنسانى على الأرض بحسب ما قرأ فى كتابات من اجتهدوا وأطلقوا لخيالاتهم العنان مسنودين على ما تأكد لهم من معلومات علمية عن نشأة الحياة فوق سطح الأرض واحتمالاتها فى الكواكب السيارة داخل المجموعة الشمسية أو المجرات ودرب التبانة، كانت المسألة برغم كونها مضنية ومربكة ويصعب الخلاص منها مبهجة على نحو ما، تمامًا مثل الأحلام والكوابيس والمنامات التى كانت تقتحمه ناعمة فى البدايات دائمًا وقاسية فى النهايات، لعله كان يستطيع بحساباته عن نفسه أن يفر من الرغبة فى استرجاعها حتى لا يصاب بالكدر أو الاكتئاب بحسب ما يقول علماء النفس، كان يواصل فراره من نفسه وخيالاته وأحلامه وكوابيسه المتكررة ليبقى ويعيش، وربما كانت قدرته على الفصل بين ما هو حلم أو منام أو كابوس تساعده على الاستمرار فى الحياة وحيدًا كل هذا العمر، ولولا هذه القدرة لاختلف الأمر فأراح واستراح وقد تخطى العقد التاسع من عمره ولم تختلط فى ذاكرته الحقائق مع الأوهام لأنه كان بشهادة كل من عرفوه يميز كل ما كان يحدث له ويضعه فى الخانة التى تناسبه.

***

كان محاصرًا بهم فى المنام من كل جانب، يصرخون ويرفعون أصواتهم، يدرك أنه مكبوس فى منام ويتذكر هويته الحقيقية ويتعجب من عبارات السباب والاتهامات الموجهة له لكنه لا يفكر فى الدفاع عن نفسه مخافة أن ينال سخرياتهم من ثأثأته ونأنأته أيضًا، كانوا يحملونه المسئولية عن كل ما وصلت إليه أحوالهم من مواجع ومكابدات، ومكرها يدافع عن نفسه فتطاوعه الحروف ويتخلص فى المنام من «سينه» التى تتحول فى الصحو «ثاءً» و«لامه وراءه» اللتين تتحولان إلى «نون» فجة وفاضحة، يفرح بقدرته على الكلام الذى لا يجلب السخريات المعلنة أو المخفية ويبرع فى الدفاع عن نفسه وقد اتهموه بأنه أخذ حقوقهم فى الحوافز وبدلات السهر والانتقالات مع المكافآت والعلاوات من الصراف ليقوم بتوصيلها إليهم لكنه لم يفعل، يشرحون له مصاعب الحياة وكيف أنهم بالكاد يعيشون لأن مرتباتهم الأصلية لا تكفى أنصاف الشهور، يغضب لأن الأمر وصل إلى حد اتهامه بالاختلاس لأول مرة فى أحلامه وكوابيسه، أخرجوا من جيوبهم كشوفًا للصرف موقعة بإمضائه الخاص ومختومة ومعتمدة مع تعهد مكتوب بخط لا يعرف صاحبه بأن يتولى السيد فلان الفلانى توصيل تلك المبالغ لأصحابها، كانت عشرات الكشوف المختومة والمعتمدة كصور طبق الأصل تتشابه مع سيوف صدئة مشهرة فى وجهه، كان يشعر بصدمات مباغتة بعدد الكشوف التى يرى عليها توقيعه والتى تجعله مدينًا بآلاف الآلاف التى يصعب حصرها، يسقط من طوله لكنهم لا يرحمونه أو ينصرفوا من حوله، تظل أصواتهم تطن فى أذنيه

كخلايا نحل هائج، يشعر باللسعات فى خلايا مخه ويتزحزح عن مكانه بعسر العسر، يعاود التطلع إلى الكشوف واحدًا فى إثر الآخر قبل أن تطرأ على خياله فكرة أن تكون هذه التوقيعات مدسوسة عليه لأنها صور مطبوعة من أصل توقيع واحد يخصه بالفعل لكنها محض صور، يتماسك ويقف ليقول لهم عن اكتشافه الكفيل بتبرئته فيتبادلون نظرات الشك فى كشوف الحقوق المنهوبة والتى يحملونها واهمين أنه تسلمها بالفعل بموجب تلك الاعتمادات المدموغة والمختومة باعتبارها صورًا طبق الأصل يمكن اعتبارها مستندات رسمية عند اللزوم، يخلص للحظات من إحساسه بأنه لا يزال متهمًا بتحصيل أموال لم تكن تخصه لكنه ادعى أنه سوف يقوم بتوصيلها إلى أصحابها ثم طمع فيها، كانت ثقة الناس فيه مؤكدة فتبادلوا النظرات التى تؤيد اكتشافه، لكن واحدًا ممن كان يعتبرهم من أخلص أصدقائه أفسح لنفسه مكانًا وسط الجموع وأوضح لهم أنه لن يعترض على كلام صديقه وأنه يسلم بأن توقيعه على الكشوف هو مجرد صور متكررة من توقيع واحد أصلى بخط يده لا التباس فيه، وساد صمت يوحى باكتمال براءته فى عيونهم، لكن الآخر التفت ناحيته وسأله إن كان استنتاجه صحيحًا فأجاب بالإيجاب موهومًا بأنه خلص من مشكلة التدليس وصرف مستحقات الغير دون وجه حق، لكن نفس الشخص قال بصوت مجلجل إن ما قاله المتهم اعتراف لا يحتمل الشك فى أنه بالفعل صرف وأخذ وتعهد بتوزيع الحقوق على الناس ولم يفعل، وسأل هو صاحبه كيف استنتج من صورة توقيع غير

أصلى أنه بالفعل أخذ أموالاً لا تخصه؟ تجاهله الصديق وأضاف للمجاميع أن الكشوف معتمدة كأصول أو مستندات صرف وما دام المتهم اعترف بأن صور التوقيعات تم اعتمادها فقد اكتسبت صفة المستندات الرسمية، انقلبت الموازين فى عقول الناس وتحول مرة أخرى إلى متهم بالتبديد وادعاء المرض أو تمثيل الإغماء بشكل مكشوف ومفتعل، نصحهم صاحبه بأنه لو سقط أمامهم سقطة موت بلا حراك ليستدر الشفقة عليه كخدعة أخيرة فعليهم أن لا يصدقوه، تلقى هو التوبيخات والملامات والدعوات بأسوأ النهايات قبل أن يمزقوه، كان يشعر بالفعل أنه تمزق إلى أجزاء وصار يشعر بالوجع لكنه استند على احتمال أن يتقلب فى فراشه أو يفيق من نومه ويخلص من الكابوس لكنه لم يتمكن.

***

تبدل المكان فصار حيزًا ضيقًا ومخنوقًا ومدفوسًا فى ركن بناية رطبة ومسكوكة لا تدخلها شمس، وكانت هناك نافذة تطل على براح مزحوم بمجموعات من الشبان والشابات الذين كانوا يتهامسون وينظرون إلى النافذة ناحيته، يجد نفسه محصورًا وسط جماعات منهم فى المكان الضيق، يهمسون فى أذنيه بكلام عن الوظيفة الخالية المعلن عنها فى صحيفة كان قد نشر فيها قصيدة بالعامية فى نفس الأسبوع، يطلبون منه أن يتعطف ويتكرم ويوصى من بيده الأمر لتشغيلهم، فيتفاصح ويذكر لهم أن وظيفة واحدة لن تحل مشاكل هذه الجموع الغفيرة فيتصايحون ويكررون مطلبهم

بشكل جماعى وبإيقاعات تكاد تكون متشابهة، يذكرهم بأنه لا يملك الحق فى تعيين نفسه فى أى وظيفة فيسخرون منه لأنه بلغ من الكبر عتيا ونال حظه من الدنيا ومن المستحيل أن يفكر فى وظيفة وهو على عتبات الموت، لا يبدو عليه أى غضب ويبدأ من جديد فى تذكيرهم بأنه لا يحق له حتى أن يعدهم بعمل أى شىء لواحد منهم، يتذكر رغم إدراكه أنه محبوس فى كابوس كل الحكايات التى كان قد سمعها فى الصحو عن أمثالهم ممن يبحثون عن أى عمل وبأى أجر رغم حصول أكثرهم على مؤهلات عليا ومتوسطة منذ سنوات، يوشك أن يتباكى على أحوالهم ويتذكر كيف أنه التحق بالعمل بعد شهرين من إتمام دراسته وحصوله على «البكالوريا» بتفوق، سأل نفسه بينه وبين نفسه عمن دعاهم لمحاصرته فى سكنه المحروم من شمس الله لأنه مدفوس فى زقاق ضيق، وأدرك أن نافذة الحلم هى نافذته فى الصحو أيضًا وقد حاول فى السنوات الأخيرة دون أن يفلح فى تبديل السكن ليكون أكثر اتساعًا وتهوية يليق بضيوفه ليجرؤ على دعوة من يريد أن يستقبله فى أى وقت يشاء لكنه لم يحدث، فأخفى عنوانه عن كل من كان يتعامل معهم فى الصحو مخافة اكتشاف مستواه الذى كان يراه شبيهًا بعورة عريانة، لكنه فى الكابوس لم يتمكن من الإنكار وبقى فى مواجهتهم عاجزًا عن إقناعهم بأنه ليس مسئولاً عن تعيين كل من يطلب العمل لأنه ترك الوظيفة فى وزارة القوى العاملة منذ ثلث قرن تقريبًا وانقطعت صلته نهائيًا بمسائل التعيين وتحرير المحاضر لمن يتجرأ ويفصل عاملاً بلا مبرر أو يمتنع عن تنفيذ

قوانين العمالة لأمثالهم، وخلاصًا من المأزق الذى وجد نفسه فيه طلب منهم أن يتقدم كل واحد منهم بطلب توظف ليبحثه أى واحد من المسئولين الذين لا يعرفهم وإن كان يتمنى أن يتعرف عليهم، كان الطابور طويلاً جدًا والنافذة تشبه النافذة الضيقة المخصصة لبيع تذاكر «الترسو» فى سينما مصر الكائنة ولا تزال، الفارق الوحيد هو أن أكداس الطلبات كانت تتراكم وتزحم المكان إلى حد خوفه من احتمالات اختناقه فى مسكنه، تمنى لو تقلب فى مرقده ليصحو ويتخلص من ذلك الكابوس الخانق الذى كثف شعوره بالعار من نفسه ومن حالته لكنه لم يتقلب رغم محاولاته ليتلقى مزيدًا من الطلبات ويتوقع موته مخنوقًا بأكداس الورق فى كابوس ممدود ومخجل.

***

وجد نفسه فى ميدان فسيح غير مسقوف وهو فى البؤرة بغير اختياره، يحيط به المئات ممن يبحثون عن مساكن للإيواء وستر عورات الحريم والبنات فى طابور ممدود وفى يد كل منهم طلب مدموغ، لكنهم كانوا صمًا وبكمًا لا يتكلمون أو يسمعون، يكتفون بالتلويح بطلباتهم فيتعجب من قدرته على قراءة الأسماء والعبارات والحالات القاسية بكل تفاصيلها، يتمنى فى المنام لو كانت لعينيه فى الصحو مثل هذه القدرة، يلتفت إلى الطابور الآخر والذى يقف بنظام من حيث الشكل لكنه صاخب بأصوات الشبان والشابات والكل يهتف مطالبًا بمسكن فى المشاريع الخاصة بتسكين الشباب،

يصرخون بأن مصائر علاقاتهم العاطفية ورغباتهم المشروعة متوقفة بسبب عدم حصولهم على أى مساحة مسقوفة كبداية لحياة أسرية جديدة، يتوه فى تفاصيل الشكايات المتباينة التى تصل إلى مسامعه ويسرح بخياله فى عشرات الحكايات التى يتذكرها فى المنام عارفًا أنها حدثت بالفعل وسمع عنها فى الصحو، كانت هناك جماعة أخرى من ذوى الياقات البيضاء المنشاة والببيونات وأربطة العنق تحت الملابس الرسمية يقفون فى الأركان بغير نظام ويطالبونه أيضًا بتوفير الشقق السكنية الفاخرة بعيدًا عن تلك التى تتشابه فيها البنايات والتى لا تليق بمستوياتهم الراقية، ينطلق لسانه الفصيح فى المنام بلا تأتآت ولا نأنآت ليفهم الجميع أنه ليس مسئولاً عن إسكانهم ويذكرهم بأن هناك وزارة مختصة بالإسكان والسكان مهمتها صعبة بكل الحسابات رغم أن الكل فيها يحاول بقدر المستطاع، يتهمونه بأنه يتهرب من المشكلة التى هى واحدة من مسئولياته بتفويض رسمى من كل الحكومات السابقة، يستوضح منهم مندهشًا ومستنكرًا فى ذات الوقت أن يكون هو المسئول على أى نحو عن حل هذه المشاكل العويصة على امتداد العمر كله، لكن واحدًا من الأصدقاء القدامى يتقدم صفوف ذوى الببيونات والملابس الرسمية الأنيقة ويقدم إليه هاتفًا محمولاً ويطالبه بكل أدب أن يرة على مكالمة تخصه، يضع السماعة على أذنه ويسمع صوتًا مألوفًا لزميل قديم كان مسئولاً فى زمن قديم لكنه على العكس منه تولى مناصب خطيرة فى وزارات الإسكان فى الزمن القديم، رحب به مزهوًا بنفسه لأنه لا يزال يذكره، أحاطوا به

من كل جانب ليتعرفوا على هوية ذلك الرجل الذى طالت مكالمته فيبعد السماعة عن فمه تأدبًا ويهمس فى أذن أقرب الناس إليه بأنه فلان الفلانى والذى كان مسئولاً فى السابق لكنه ترك الخدمة، يتولى الرجل إسكات الكل بإشارات من كلا الذراعين والكفين، يسود صمت إلا من صوته الذى يرد على استفسارات المسئول السابق شارحًا له الحالة التى يواجهها فى الميدان فيتلقى وعودًا مبشرة بحل كل المشاكل، يتبادل الناس نظرات ارتياح وفرح لأنهم سمعوا كل حرف من كلمات الطالب والمطلوب، تنتهى المكالمة فيهللون ويقدمون له عبارات الشكر والعرفان لأنه استطاع بمكالمة واحدة أن يحل كل مشاكلهم وبكل بساطة، يتعجب ويتمنى ويفكر كيف أن هؤلاء الناس رغم تباين المستويات يتصورون أن مسئولاً سابقًا يمكنه أن يحل مشكلاتهم المتنوعة فى مسائل الإسكان؟ يسمع عبارات مستبشرة فيوشك أن يحذرهم من الاعتماد على مجرد وعد من مسئول سابق فى هاتف محمول ليحل مشاكل على هذا النحو من التعقيد، لكن واحدًا من الحاضرين يعارضه ويؤكد له أن المسئول القديم يعرف أكثر من غيره كيفية حل الألغاز الوظيفية برغم انتهاء خدمته وأن هذه المكالمة لم تأت من فراغ أو بالصدفة، يهللون للرجل الذى يؤكد لهم بأن اجتماعهم مرصود ومعلن عنه أيضًا، يقول واحد من الشباب إن أصواتهم بالفعل كانت مسموعة ويضيف أن كاتبًا مرموقًا مثله يستطيع أن يحل مشاكلهم بمكالمة واحدة فيصفقون، يشعر هو بالنشوة ويتفاءل مثلهم ثم ينطلق لسانه بفصاحة دون مخاوف ليحدثهم عن كل

الأزمات التى انحلت فى السابق على أهون الأسباب، يتلقى هتافات الاستحسان لفصاحته وبراعته فى معرفة تواريخ الأجداد القدامى الذين انتصروا على الزمن، لكنه على غير إرادة منه يتقلب فى مرقده ويصحو من منامه الجميل.

***

كنت أظنها مجرد مصادفات من بين المصادفات التى يندر أن ألتفت إليها أو أمعن التفكير فيها بعد حصولها، كانت مثل هذه الأمور تحدث، أقوم من نومى وأستعيد ما كنت أحلم به فأكتشف أنه حلم مبتور، لكننى عندما أعاود الرقاد أراه بنفس تفاصيله أو بعضها قبل أن يكتمل الحلم، كنت أقول لزوجتى فتقول لى ولنفسها:

- حتى أحلامك تأتيك بالتقسيط أو بالقطارة مثل رزقنا القليل؟

كنت من ناحيتى أهوّن على نفسى الأمر، وغالبًا ما كنت أنساه، لكن ما كان يكيدنى هو تلك الأحلام المبتورة بفعل فاعل والتى لم تكن تكتمل أبدًا، وكانت هى نفسها تبتر بعض أحلامى عندما تلّح على إيقاظى وإفزاعى عندما تهزنى وهى تصرخ مثلاً لأن تلغرافًا وصلنى للتوّ أو أن قريبًا زارنى وهو الآن يقف على الباب ويرفض الدخول إلا إذا كنت فى استقباله، أو أن غسالتها تعطلت أو أن رئيسى قد طلبنى على الهاتف وطالبها بإيقاظى، كانت مثل هذه الأمور تتكفّل بإفساد مقدمات الحلم وتجعله يتسرب من الذاكرة مثل الغازات الطيارة فلا يكتمل الحلم أبدًا.

قلة قليلة من أصدقائى يعرفون حكايتى مع الأحلام، يجعلونها فى بعض السهرات المشتركة مجالاً للسخرية من عقلى الباطن الذى هو شديد الغرابة ومتعدّد الرغبات والمطامح كما يقولون كما يقولون، بل إنهم يعتقدون أنه جسور يتخطى حدود الممكن ويسرح فى متاهات المستحيل، وأنا أختلف معهم إذا تحاورنا فى مسألة ما يجوز لى أن أحلم به وما لا يجوز، أدافع عن نفسى بأننى لا أتجاوز حدودى إلا فى الأحلام، صحيح أننى أدخل فى صراعات مع زعماء العالم، بوش وتاتشر وهتلر وكيم إيل سونج والخمينى وميتران وديجول وأنديرا غاندى وماوتسى تونج وعبد الناصر والسادات وكارتر وكاسترو وجورباتشوف وستالين وبعض جنرالات أمريكا اللاتينية الكثار، وأحيانًا كنت أحلم بالملوك القدامى من أمثال رمسيس وتحتمس وحمورابى وسليمان الملك وبعض الأباطرة والقياصرة والسلاطين والدكتاتورات ومغتصبى العروش وذوى المعالى والهمم والقوّاد الكبار مثل صلاح الدين والإسكندر وروميل وهولاكو وغيرهم وغيرهم كثار ممن لا يليق أن أزحم بهم حكايتى وأذكرهم أو أتذكرهم بينما هم متواجدون بين صفحات التاريخ المكتوب عكس هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون ويمارسون أدوارهم حتى هذه الساعة برضانا أو غصبًا عنّا نحن المحكومين الذين نادرًا ما يقيم لهم - أمثال هؤلاء الحكام والقادة والأبطال - الكثير من الاعتبار أو الحساب، لكنه التاريخ هو الذى شغلنى اجتذبنى وحيرنى وشفانى فى نفس الوقت، هو التاريخ الذى دعانى لأن أكوّن أفكارى عن هؤلاء وغيرهم، ولا بد أنهم انطبعوا فى عقلى الواعى

على نحو مغاير لما كان يحدث فى الرؤى والأحلام حيث اندفاعات العقل الباطن تجعلنى أتجاسر فأصادق البعض منهم وأعادى البعض الآخر وما بين المصادقة والمعاداة كنت ألوم أو أوبخّ أو أعاتب أو أعارك، كأنما كان ذلك العقل الشيطانى العاصى مفصولاً عنى رغم محاولاتى لأن أكبح جماحه أو أن أصحح مساره وأذكّره بأننى مجرد مواطن بسيط بلا سلطان فى بلد يتوسط العالم ويتعرض لشعرات المشكلات التى تكابدها بلدان العالم الثالث فى زمن يتحكّم فيه الأقوياء، كان يمارس شطحاته ويسرح على هواه مما دعانى إلى الكفّ عن سرد الأحلام لتلك القلة القليلة من أصحابى حتى لا أتعرض للمزيد من سخرياتهم أو استنكاراتهم لأحلامى.

***

كنت أطحن بأضراسى خبزًا مغموسًا بطبيخ بائت عندما شعرت به ينكسر، وبلسانى استطعت أن أفرز العجين وأعزل الجزء الذى انكسر من الضرس، كانت شيئًا ضئيلاً مثل رأس الدبوس، سطحها مستو ولامع وظهرها مصاب بالتسوس، ألقيت بها جانبًا بعد أن فحصتها، وبلسانى جعلت أتحسس مكان الكسر فى زاوية الضرس المجاور لضرس العقل، باح لى لسانى دون أن ينطق بأن الثقب الذى تخلف عن الكسر عميق، وفكرت أنه يلزم علاجه على وجه السرعة، وبلسانى تحدّثت لزوجتى بحماس عن فجيعتى التى أصابتنى ربما بسبب ظلطة عائمة فى الطبيخ البائت الذى قدمته

لى، أو فى العيش المخبوز فى مخبز الحكومة الآلى الذى افتتحه الوزير المحافظ منذ أيام قلائل، ولا بد أننى بالغت فى إظهار الغضب من طبيخ البيت الذى هو مسئوليتها والخبز الذى هو مسئولية المخبز الآلى، كانت هى تتأملنى فى صمت حسبته تضامنًا معى أو تعاطفًا مع حالتى وقد انصاب أحد أضراسى غدرًا، لكنها فاجأتنى باندفاعها الهادر فى احتجاج:

ـ كأنك تعايرنى بأسنانك وأضراسك السليمة، عيشتنى فى الهم فخلعت أضراسى وتكسرت أسنانى بسبب نقص الكالسيوم فى طعامى كما قال طبيب الأسنان نفسه، هل تنكر أنه قال ذلك؟

أفقت لنفسى وأنا أسمع منها وأراها مثل وحش جريح غضبان مستعد لأن يفتك بمن يعترضه، ربما أكون قد أوشكت على التحوّل من إحساسى بالدهشة والمفاجأة إلى إحساسى بشىء من الخوف السابق لحالة الاستنفار المضاد أو الاستئساد فى غابة الدنيا من أجل البقاء، مجرد البقاء لكنها انطلقت فى بكاء حار وأنين موجوع وكأن أمها التى ماتت منذ سنوات ماتت مرة أخرى فى تلك اللحظات، ومن ناحيتى بدأت أصالحها وأهدئها وألاطفها وأؤكد لها أننى لم أقصد معايرتها بشىء أو تذكيرها بأضراسها المخلوعة أو أسنانها التى تكسّرت بسبب نقص الكالسيوم الملعون، كنت فى تلك اللحظات أحتاج إلى من يواسينى ويربت على كتفى ويصالحنى مثلما أفعل معها، لكننى ضحّيت بنفسى وبوجعى من أجل تجفيف الدموع التى كانت تتساقط بانتظام، وبدا لى أننى سمعتها تدعو «وتتّجّب».

- يا رب .. أنت أعلم بحالى .. يا رب .. فرّجنى عليه. كسّر أسنانه وخلّع أضراسه يا كريم.

ولأنها كانت تبكى وتنتحب فقد كانت كلماتها ممضوغة وغير واضحة، لكننى أخذتها بالشبهة وشعرت بالسخونة تصيب دماغى وتتسرّب إلى أطرافى، كنت أستشعر شماتتها وقلة خوفها على أحوالى، وقلت لنفسى بكاء ببكاء أو انهزام بانتصار أو غدر بغدر، فرحت أضربها وأضربها حتى انهدت قواى وانهدّت قواها فتهالكنا على نفس الفراش ورحنا فى النعاس متجاورين ومتلاصقين.

***

كانت مواجع الليل من الضرس المكسور تتزايد، لم تفلح حبّات القرنفل ولا معجون الأسنان فى تخفيف المواجع، كنت لافتة طبيب الأسنان الساكن فى العمارة المقابلة أمامى تغرينى بالمغامرة، غامرت وذهبت اعتمادًا على علاقته المهذّبة معى وأدبه الجم الذى يلقانى به، توقعت أن يحتفى بى وربما يرفض المقابل المادى الذى يحصل عليه قبل الكشف، عندما رآنى أبتسم ببشاشة فظهرت أسنانه اللامعة البيضاء وكأنها إعلان ناجح عن معجون أسنان من إنتاج البلدان الشمالية المترفة، همهم بما يفيد أنه كان يتوقع زيارتى منذ أيام فتأكدت ظنونى فى زوجتى التى لا تكف عن الثرثرة لكل جارتها عن أسرارنا الصغيرة والكبيرة، أخفيت دهشتى وأنا أجلس على المقعد المخصوص حيث أشار، وعندما طالبنى بأن أشير إلى مكان الوجع أشرت وأوضحت ظنونى فى ظلطة فى

الطبيخ أو خبز المخبز الآلى حديث الافتتاح، نظر هو نحوى فى إنكار مكتوم وربما فى ازدراء فشعرت بالخجل ولم أسترسل أكثر، سألنى عن عمرى على وجه الدقة فتباهيت بأننى أوشك على إكمال سنوات العقد الخامس من عمرى فبدا حزينًا لا أدرى لماذا، لكنه سرعان ما حوّل حزنه إلى جفوة مفاجئة، صار يشير ولا يتكلم، وكان على أن أحاول ترجمة حركاته وإشاراته، أفتح فمى أو أغلقه، أخلع منظارى أو أستند جيدًا على المقعد، وعندما تركنى وجلس إلى المكتب يكتب تذكرة العلاج توجهت إليه وتناولتها وأبديت استعدادًا ظاهرًا لتنفيذ تعليماته التى كان يصدرها بفظاظة وغلظة وكأننى صرت عدوه لحظة أن دخلت عيادته بصفتى مريضًا على عكس ما كنت أتوقع وعلى عكس ما كان يحدث وكأنه شخص آخر يشبهه، وفكرت أن البعض يتبدلون إذا أحسوا بأهمية أدوارهم أو خطورة مهنتهم وقدرتهم على إصدار الأوامر وهم جلوس وراء مكاتبهم ولا يسمحون بأن يعترض عليهم أحد، وتأكد لى أنه قد تبدّل إلى طبيب أسنان له سلطان وسطوة، وأننى فقدته كصاحب مهذب وجار ودود عندما لجأت إليه مرعوبًا من مواجع ضرسى، وعلى نحو غامض تعاطفت مع كل أصحاب السلطة والسلطان إلى حد أننى كنت أوشك على تبرير خطاياهم الفادحة ضد الشعوب.

***

كنت قد قرأت تحقيقًا فى صباح نفس اليوم عن مرض الإيدز، وكان من بين ما قرأته أنه من الممكن أن ينتقل الفيروس القاتل

بواسطة حقنة يتكرّر استخدامها، وبغموض أشار كاتب التحقيق إلى الحقن التى يستخدمها أطباء الأسنان، ركبتنى الوساوس وفكرت فى أن أتخلّف عن موعدى لولا شدة الألم وتنبيهات زوجتى المتكرّرة قبل حلول الموعد وتأكيداتها أنه دقيق فى عمله ومواعيده، تواكلت وتحاملت ونهضت ثم ذهبت، كان واقفًا قبالتى بأسنانه اللامعة عندما انفتح الباب ففهمت أنه ينتظرنى وحده وأنه لا ممرض أو ممرضة ولا مرضى، وحدى معه ووحده معى، أجلسنى على المقعد وأمرنى بأن أفتح فمى ففتحته، أن أخلع منظارى فخلعته، أن أعتدل فى جلستى فاعتدلت، وبدا لى أنه غرس شيئًا بالقرب من حلقومى وصدقت فكرتى لأنه استنهضنى بإشارة تبعتها إشارة أخرى إلى الصالة الفسيحة:

ـ سوف أناديك.

ـ هل

ـ انتظرنى حتى يفعل البنج مفعوله فى اللّثة.

قال ويده تدفعنى دفعًا كى أخرج من باب الحجرة المفتوح، كان فى واقع الأمر يطردنى، وكنت فى واقع الأمر أسيره المحبوس العاجز عن الفرار، ولأننى لم أكن أعرف صلاحياته على وجه الدقة فقد جلست حيث أشار وانتظرت، وعندما أشار إلىّ وهو واقف فى منتصف مدخل الحجرة قمت وأسرعت ناحيته، أجلسنى مرة أخرى بإشارة من يده، أمرنى بفتح فمى ففتحته، أمرنى أن أفتحه أكثر ففعلت، سمعت أزيز الإبرة الدوّارة المتصلة بسلك غليظ، أمرنى

بمعاودة فتح فمى أكثر فحاولت رغم إحساسى أنه كان مفتوحًا عن آخره، حرّك أدواته وأمرنى بالمضمضة بسرعة فأسرعت، أمرنى بأن أثبت فى مكانى فتماسكت، كنت أشعر بشدّة الجذب فى الاتجاه المضاد إلى حد أن الرجل كان يوشك أن يسحب رأسى إلى أسفل، يعافر بكل عزمه ويستجلب عزمًا إضافيًا ليجذبنى إلى أسفل من فكى الأعلى الذى لا بد أنه كان يمسكه بكلاّبة متينة فى قبضتيه، كنت أتحامل وأتماسك وأتظاهر بالثبات فى مواجهة القوة المتجبّرة، ولا بد أنه مرّ وقت طويل حتى أنسلت شىء كان يتهزهز ممسوكًا من كل الاتجاهات، انحشرت قطنة طبية فى فمى من الداخل عند التقاء الفكين، وبيده أطبق فمى المفتوح عليه فانطبق، كان الرجل يتصبّب عرقًا ولا يحرص على الابتعاد عنى مما جعل قطرات من عرقه تتقاطر فوق خدودى وأنفى وجبهتى وشفتى، وعندما رأيته يجفف عرقه من علبة المناديل الورقية، فكرت فى استخدامها لكنه أخذ كل محتويات العلبة بين قبضتيه وجعل يستخدمها وكأنها قطعة لحم وحيدة فى طبق بين رجلين تجاسر أحدهما واستولى عليها دون أن يعير الآخر أدنى اهتمام، مسحت وجهى براحتى ووقفت أنتظر، ولا بد أنه لم يكن يشعر بوجودى رغم وجودى قبالته فى المكان أو أنه كان يرانى من مقعد أو باب أو جدار أصم، تنحنحت لأذكره بوجودى فقال بآلية وكأنه يحادث نفسه بعد أن قطع مشوارًا لا يستهان به:

ـ آه .. ضرس العقل متعب، متعب دائمًا لطبيب الأسنان وللمريض فى بعض الحالات، كان ضرس عقلك فى كامل عنفوانه وقوته، خلعته بمعجزة.

كانت القطنة فى نهاية فكى فقلت من بين أسنانى مستنكرًا:

- ضرس العقل؟

- سوف تشعر ببعض الوجع، لكنه سوف يزول بمرور الأيام وعلى فكرة، ضرسك المكسور ما زال فى مكانه، وربما أتمكن من علاجه أو حشوه قبل أن أفكر فى خلعه.

- وضرس العقل؟

نظر إلىّ بدهشة وكأننى أخطأت بتكرار سؤالى، كنت أشعر أننى سقطت من فوق الهرم الأكبر أو أننى خسرت عقلى عندما أسلمت نفسى للرجل ليخلع الضرس السليم ويهمل المكسور، ولم أكن بقادر على الكلام أو الاحتجاج أو الغضب فتركت عيادته ونزلت مهزومًا على درجات السلم.

***

لابد أنه هناك علاقة مؤكدة بين أنواع الأحلام والرؤى ووجود أو عدم وجود ضروس العقل، ولا بد أن وجودها يمنع امتداد بعض الرؤى ثم استمرارها وتواصلها على طريقة المسلسلات التليفزيونية الهابطة والمملة التى يعرضونها فتوشك أن تعيب متوسطى الذكاء بالتخلف العقلى، لكنك ما دمت ذكيًا فأنت تعرف أيضًا أنك تملك مفتاح جهازك، تسكته أو تحول قنواته على العكس من تلك الأحلام الكابوسية والمرعبة التى بدأت تحاصرنى وتطاردنى فى نفس تلك الليلة التى خلعت فيها ضرس عقلى، ولو

كانت حلمًا كابوسيًا مبتورًا لهان الأمر، لكنها استمرت وتواصلت على نفس الوتيرة، ما إن أنعس أو أغفى حتى أجدنى داخل تلك المدينة الغريبة مواطنًا من الدرجة الثانية أو الثالثة، أبدأ من تحت السلم الوظيفى كما يقولون وأبقى فى منطقة النصف الأدنى، أعافر لكى أتخطى الخط الوهمى الفاصل بين الفوق والتحت ولا أفلح أبدًا، تترصدنى كل جدران المدينة وسقوفها السفلية وكأننى عدوها الوحيد المستهدف، بينى وبينها دم وثأر موغل فى القدم يتأجج بواسطة أعوان تلك المنظمة الجهنمية مستحيلة الوجوة، ولا بد أنه عقلى الباطن الذى انحرف تمامًا بعد أن خلعت خرس عقلى، لا بد أنه عقلى الباطن الفاقد عقله هو الذى أنشأها وحبسنى فيها كل ساعات الرقاد، وعبثًا حاولت الفرار بالصحو قدر المستطاع فلم أفلح، كان من المستحيل مثلاً أن أظل صاحيًا طوال الوقت، كنت أستطيع فى البداية أن أزود ساعات الصحو على حساب ساعات الرقاد، كنت ألجأ إلى المنبهات، كل أنواع المنبهات، المشروعة والمنوعة، لكننى كنت برغم كل شىء أنام فى نهاية الأمر، وأرانى فى تلك المدينة الغريبة، أكابد استمرار الحلم الممتد الذى هو فى واقع الأمر كابوس عقل باطن بلا وعى، الخطير أننى بكل الحسابات الواعية انشطرت بين مدينتكم التى تعرفونها جيدًا وتلك المدينة التى لم يدخلها أحد غيرى، أو على الأقل لم يبح بأسرارها أحد غيرى، فمن يدرى لعلها بالفعل موجودة فى تلافيف بعض العقول الباطنة الأخرى ولا يتجاسر أصحابها على الكشف عنها أو البوح بوجودها أو أن يخجل البعض من الحديث عن

سخافات أعوان تلك المنظمة الجهنمية التى تسيطر عليها، وربما لو تعارفنا من خلال البوح الجسور نستطيع أن نكون نقابة أو جمعية أو اتحاد يجمعنا وتكون مهمته الأولى هى التصدى لسخافات تلك العقول الباطنة، ولا بد أنه سوف تنشأ علاقة حميمة بين هؤلاء الناس وعلماء النفس المحدثين ممن لديهم الاستعداد للدخول فى مغامرات علمية أو أبحاث رائدة، ومن يدرى، ربما استطاع هؤلاء العلماء من خلال السعى إلى الوصول لمفاتيح العقل المخفى المارق الذى هو مثل عفريت أو جنى فاسق، ربما توصلوا إلى مداخله ومخارجه، ربما تعرفوا على مساربه الغامضة المعتمة التى أجهلها ويعرفونها، وربما حتى من غير علماء النفس استطاع الضحايا أن يتساند الواحد منهم على أكتاف الآخر بالبوح والشكاية، ولعل البوح والشكاية فى مثل هذه الحالات علاج ودواء، ولعل الداء تزايد عندى وعند غيرى بسبب الكتمان والسكوت، وأخيرًا قبل أن أصف لكم تلك المدينة السفلية يلزم أن أناديكم يا من خلع أطباء الأسنان ضروس عقولكم لتسمعونى وأسمع منكم قبل أن يغلبنى النوم ويغلبكم.

***

رأيتنى تحت الأرض أمشى فى السرداب الموحل، أكابد إحساسًا بالبرودة الشديدة إلى حد الارتعاش يتلوه إحساس معاكس بالسخونة الشديدة والصهد، أرتعش ثم أغرق فى قطرات العرق النازف من كل أجزاء جسمى، شىء آخر غير حمامات «الساونا»

التى يدخلها الأكابر فتجدد خلاياهم، شىء يدمر الخلايا ويستنزف قدراتها وأنا أسعى فى اتجاه الشعاع الخافت البعيد، أسمع أصوات التحذير والتشجيع تتعالى لأتراجع أو أن أكمل المشوار وأنفذ من الطاقة الضيقة التى كنت أدنو منها رغم الأوحال التى تتغرس فيها قدماى فأجتذبها وأخلصها بكل عسر وأتعلق بحافة الطاقة...

صحوة .. ..

أعافر بكل عزمى حتى لا أسقط، أسمع أصوات التشجيع والتيئيس وأتذكر أننى من نسل فلاحين فراعين خشنين وأقوياء فأنفذ رغم اتهامى بأننى جلف مثل أسلافى، أتقدم بطلبى المدموغ للحصول على الوظيفة فى وسط الزحام، وعشرات الأيدى تمتد إلى النافذة الضيقة مثل شباك الدرجة الثالثة لسينما مصر/ طنطا فى نهايات الخمسينيات، ضيق وعليه دائمًا زحام والشاطر من يصعد فوق أكتاف الناس ليحصل على تذكرة الدخول قبل أن ينتهى الميعاد، ولا بد أننى طلعت فوق بعض الأكتاف وأزحت بعض الأذرع وقدمت طلبى وأنا أتعلق فوق الأبدان ثم استعدته وقد تأشر عليه من الرجل المسئول بما يفيد قبول الطلب، وفى خانة الوظيفة كتب بخطه المبجل «مساعد دباغ».

صحوة ... ...

«على باب المجزر الآلى كنت أقف بلا سكين أو ساطور أو خنصر أو مدبة صغيرة، كانوا يقفون طوابير متراصة بكامل

هندامهم وأسلحتهم المسنونة التى تلمع نصالها، أخذت مكانى ممسكًا بقرار توظيفى فقال أحدهم وهو يشير ناحيتى:

ـ لا بد يا حضرات أن فى الأمر توصية أخرى من أحد الدباغين الكبار.. انظروا إلى هيئته، إنه لا يصلح للوظيفة.

«التفت الكل ناحيتى وأظهر كل واحد منهم طلبه الممهور بالتوقيع الرسمى وعليه نفس التأشيرة «مساعد دباغ»، بقلم صاحب الخط المبجل، أدركت أننى لم أكن وحدى وأنهم جميعًا ينافسوننى فى الحصول على وظيفة واحدة فسقط قلبى إلى ما تحت القدمين وصار يئن من فرط العناء وانعدام الحيلة».

صحوة..

.. .. ..

«اختارونى بمعجزة، وجدونى بلا سلاح أو هيئة مميزة فتهامسوا فى أمرى وأرضاهم أن أكون بلا سطوة أو قدرة أو حتى رغبة فى الصراع على شىء.. أى شىء، وبسرعة أدخلونى دهاليز المجزر الآلى وسلمونى آلات الذبح الآلى عهدة، أكون مسئولاً عنها فى كل الأوقات وكل الحالات، كانت الآلات كبيرة وكثيرة متتابعة على امتداد البصر، خاملة ومقبضة ومخيفة فى ساعات الراحة، صاخبة ومتجبرة ومرعبة فى ساعات الذبح والسلخ، وكان من اللازم أن أكون حارسها الوحيد الذى يلازمها رغم أننى مساعد دباغ حديث لم يمارس مهنة الدبغ أو يعرف أصولها.

صحوة .. ..

هزتنى بعنف فصحوت لأراها فرحانة، فى يمينها الجريدة اليومية وبيدها اليسرى شهادة الاستثمار الوحيدة التى نملكها تلوح بها فرحانة فرحة من عثر على كنز تحت مخدة نومه بعيدًا عن كل التوقعات:

ـ كسبنا مائة جنيه .. كسبنا مائة جنيه

قمت متحمسًا وفكرت أنه من الممكن أن أسدد فاتورة الكهرباء المتأخرة وأن أشترى بعض المطالب اللازمة لسد الأفواه وإسكات البطون، لكننى بينما أراجع الأرقام اكتشفت خلافًا فى أحد الأرقام المنشورة، حيث أشارت هى عن الرقم المطبوع بشهادة الاستثمار، شعرت باليأس وعاودت الرقاد.

***

«رأيت كبير الدباغين يوبخ الدباغ الذى أقوم بمساعدته قائلاً فى استياء وهو يشير ناحيتى:

«جلده ناعم ومظهره يدعو للقلق، لا بد أنه حدث نوع من الخطأ قبل أن يتم اختياره «مساعد دباغ»، مهنة مساعد الدباغ تحتاج إلى مشاعر خشنة وأحاسيس غليظة ومتبلدة فى ذات الوقت، اكتب لى تقريرًا وافيًا عن حركاته وسكناته، مؤهلاته وخبراته السابقة وعلاقاته خصوصًا مع أكابر المسئولين فى المدابغ، القدامى والمحدثين، و.. و.. وبدون مجاملات حتى لا تعرض مركزك ومراكزنا للخطر».

«كان الدباغ الذى أقوم بمساعدته يكتب تقريره المطول عنى على مقربة منى لضيق المكان، وكان من الممكن أن أقرأ السطور سطرًا تحت سطر وكلها فى غير صالحى، وعندما كانت أصابع الرجل تصاب بالوجع كنت أشفق عليه وأتعاطف معه، من شدة إشفاقى عليه وتعاطفى عرضت عليه أن أقوم متطوعًا بمساعدته بلا مقابل فوافق على الفور، كان يملينى وأكتب، يملينى وأكتب حتى أصابت أصابعى مواجع مفصلية لم أجربها من قبل أبدًا، لكننى جاهدت أن أداريها عنه حتى لا أخيب أمله فى إمكانيات الاستعانة بى فى المواقف الصعبة، وعندما أنهيت الصفحات التى أملاها على تصفحها بإعجاب وجاملنى قائلاً إن خطى جميل ومقروء وأنه حتى لو أننى فقدت وظيفة مساعد الدباغ فلا بد أن اللجنة سوف ترشحنى لوظيفة مساعد خطاط فطمأن قلبى، طلب منى أن أعوض كفى اليمنى بدم الذبائح وأبصم بكل الكف على آخر ورقة من أوراق التقرير المكتوب ضدى ففعلت ما أمرنى به وجلست مكانى أنتظر مصيرى».

صحوة ... رقاد

صحوة ... رقاد ...

صحوات متتالية ... رقدات متتالية

عن جدوى أحلام الفقراء:

سألت نفسى فى الصحو عن جدوى أحلام الفقراء وجاوبت نفسى بأنها بلا قيمة وأنه كان من الأفضل أن تنزاح عنهم تلك

الأحلام الوردية لتتزاح عنهم بالمثل تلك الكوابيس والرؤى الكاذبة، وتكشف لى أن الأحلام المبتورة تسبب الضجر بمثل ما تسبب الأحلام الممتدة هموم الليل والنهار دون تفرقة، وأنه لو تخلص الفقراء من تلك الأحلام الفسدانة لكانت لساعات رقادهم فوائد أكثر، وقلت لروحى أنه لو كان الأمر بيدى لحبست كل العقول الباطنة المفلوتة والجامحة التى تتسلل إلينا فى هدأة الليل لترسم مثل تلك المدن السفلية التى دخلها مساعد الدباغ والتى شاهد فيها عشرات الأعاجيب وفاتته أعاجيب أخرى لم يحسن استيعابها أو رصدها، وأنه لولا لحظات الإلهام ما فكر فى تسجيل ما سجله متصلاً ومتواصلاً على هيئة أحلام ملونة كادت أن تكون رائعة لو أنها راعت أصول الحبكة الجيدة وبراعة الإخراج، وقلت لنفسى لماذا لا أحاول تسجيلها مرة أخرى بنفسى بترتيب ونظام وعلى غير تعجل لتتكون لى فى نهاية الأمر ملامح مدينة سفلية مفروشة كل غرفاتها وقاعاتها بجلود الحيوانات، أسود ونمور وثعالب وغزلان وخراف وحمير وجمال وثعابين وزواحف كبيرة الأحجام ودبناصورات وخراتيت وحيتان وغيرها وغيرها من كل أنواع الحيوانات والزواحف ذوات الجلود السميكة الرقيقة على حدٍ سواء، مدينة سفلية مشغولة بالذبح والسلخ والتحنيط، مدينة متفردة ووحيدة ومتمكنة فى صناعات الجلود ولا تضاهيها فى الدنيا مدينة، تصنع وتصدر حقائب السفر وشنط المدارس ومداسات الرجال والأطفال والسترات الجلدية والبنطلونات والأحزمة، لكنها تبرع بما لا يقاس فى صناعة أحذية السيدات

وحقائب السيدات والقفازات الحريمى على نحو غير مسبوق وبأذواق متطورة وملفتة للأنظار، شىء مدهش يا سادة لو استطاعت أى مؤسسة على ظهر كوكبنا الأرضى أن تتخصص فى تنفيذ أفضل الأذواق والألوان لتبهر عقول الحريم على مستوى العالم المسكون ولتكسب كل المؤسسات المتنافسة وتزيحها عن مجال المنافسة بإعلان إفلاسها مؤسسة فى إثر مؤسسة. ولأننى كنت فى السابق أرسمها وأحتفظ بها من ذاكرة الأحلام الممتدة فإننى أستطيع أن أشارك أصحاب رؤوس الأموال الكبار الواعين فى تأسيس تلك المؤسسة العالمية المتخصصة فى صناعة وتوزيع مداسات الحريم وحقائبهم وقفازاتهم، ولا بد أننى كنت أعول على مشاركات بعض الممولين العرب من المليارديرات الجسورين الذين يحافظون على أموالهم فى البنوك الأمريكية أو الأوروبية بعيدًا عن حسد الفقراء وكراهيتهم لكل الناجحين، المهم أن نؤسس تلك المدينة السفلية التى تحكمها منظمة عالمية غير خاضعة لأى نظام حكومى فى الشرق أو الغرب، وتخيلوا معى ملامح تلك المنظمة من ذوى الجلود السميكة التى لا ينفذ منها الهواء أو البخار أو الماء أو الرصاص، وهى على أى الأحوال منظمة مستحيلة وممكنة فى ذات الوقت إذا تغافلنا باختيارنا وإرادتنا وغطسنا فى الأحلام الممتدة على حساب الصحو والحركة، وساعته يمكننا أن نهبط إلى تلك المدينة السفلية ويهبط معنا كل من يرغبون الصعود من ذلك أنها مدينة مقلوبة الموازين، تذوب نساؤها عشقًا وهيامًا بالرجال ذوى الجلود السميكة والبارعون فى الكذب والذبح والسلخ ودباغة

الجلود، كل أنواع الجلود بما فى ذلك الجلود البشرية لفقراء الناس وهم كثرة كما تعرفون، كثرة مقلقة لأثرياء العالم الودعاء.

***

رغم فرارى كل صباح من تلك الأحلام بالصحو كنت أراها من جديد تتجسد فى خيالى فى ساعات التأمل والفراغ، تسحبنى من عالمى وتدخلنى فى سراديبها المتشعبة، ويعاود كبير الدباغين تهديدى لأننى بحت ببعض أسرارها وسجلت على الورق بعض ما كنت أراه، لكننى فى واقع الأمر لم أكن أخشاه أو أخشى حملة المداسات الحريمى النادرة، وما زلت مستعدًا لمزيد من البوح بما رأيته فى تلك المدينة السفلية العجيبة وأحلم حلم صحو خالص أن ألتقى ببعض من رآها مثلى فى غفلة أو غفوة.

***

كان قد ارتاح من مواجعه تقريبًا أو بدا له ذلك فقال لروحه بينه وبين روحه: يحق لك يا ولد أن تفرح «وتزيط» مثلما يفعل العيال، اعتاد أن يفى بكامل حريته بنذوره التى قطعها على روحه بعد نجاته من الكوابيس خلال السنوات الخمس الأخيرة، أقبل على الحياة مرة أخرى وتجدد، تخلص من عاداته الشريرة التى سكنت عقله زمنًا ودفعته ليعترض على العلاقات الزائفة بحساباته ويتخطى حدوده أحيانًا بانتقاد كل ما حوله بلا مواربة.

أيامها كانت الأشياء والناس والبنايات واللغة تتبدل من حوله بإيقاعات أسرع من قدرته على ملاحقتها ومسايرتها حتى لو أراد،

ولأن ردود أفعاله كانت حادة فقد صار متهمًا باستعداده لمعاركة الناموسة إذا حامت حول دماعه أو زنت قرب أذنه، تزايدت وحدته وخسر صداقات وعلاقات وأقارب من إخوة وأخوات مرورًا بأولاد العم والخال وفروع عائلة ينتسب إليها بحكم الميراث، تباعدوا عنه فتباعد وارتاحوا منه فارتاح، لعله أيامها راجع نفسه ألف مرة ولم يكتشف أنه أخطأ فى أى شىء أكثر من أنه كان يختلف ويعلن رأيه بصراحة لا تعرف المواربة، كان لا يتمكن من التنازل عن مواجهة ما يحيطه بحرية ودون تردد، وقال البعض إنه مصاب بمرض نفسى خطير ونادر، وقال البعض إنه عاجز عن المسايرة اللازمة لاستمرار الحياة واهمًا أنه يعيش فى زمن غير الزمن كان يتطلب مثل جسارته النادرة، كان يؤمن بأنه يحق للإنسان أن يعيش عمره حسبما يرغب ما لم يتسبب فى أضرار لأى أحد، وكان يرفض أى وصاية عليه من أى كائن حى، لكنها على أى حال كانت مقدمات لوجع من نوع نادر إذا اعتبرنا الكوابيس المتتابعة التى بدأت تقتحمه حالة مرضية يكابد منها فى نومه وصحوه ويشتكى من عنفوانها وتجبرها لروحه ولمن يثق فيهم من الأصدقاء القدامى، كان يؤكد لهم أنها كوابيس من نوع خاص قادرة على خنقه واستلاب عمره، لكنهم جميعًا أفهموه أن المسألة بسيطة ولا تستدعى قلقه الزائد فلم يقتنع وتشكك فى إمكانية إصابته بمرض قليل الانتشار يستلزم علاجًا خاصًا يخلصه من الكوابيس الشرسة والضارية التى تفزعه وتفسد عليه حياته فى الصحو والمنام، دار أيامها على أهم المتخصصين فى تفسير وتحليل الأحلام والكوابيس من أساتذة

علم النفس الكبار فأبدوا استهانتهم بالظاهرة وحاولوا طمأنته ووصفوا له بعض المهدئات والمسكنات فلم تفلح فى التخفيف عنه بل زودت كوابيسه فزودوا الجرعات فانفتح القمقم وخرج المارد الكامن فى داخله لأن الكوابيس تزايدت وبرزت أنيابها، أوصوه بإجراء تحاليل خاصة فقبل أن يجلس أو يرقد داخل أجهزة قائمة أو مائلة أو أفقية دونما اعتراض على توصيلات بأسلاك قاتمة ملونة تلتصق بأطرافه وبدنه أو تدخل فى شراييه برؤوس إبر طبية لم يسبق أن رآها فى كل حياته أو تخيل وجودها على سطح الكرة الأرضية، وكان يرى بدنه على شاشات التجسيد الكائنة قبالته والسوائل الملونة تسرى فى شراييه فيتلون دمه بكل ألوان الطيف المباشرة والمتداخلة، لكنه كان مشوارًا ضروريًا ولا فرار منه، لعله بحسابات روحه عن روحه كان جسورًا، وربما قال البعض إنه كان متهورًا لأنه يدخل تجربة غير مسبوقة بسبب أوهامه أو رغبته فى الخلاص من الكوابيس والأحلام مع أن بعض الناس اعتبروها لازمة وضرورية لتتوازن الحياة بمعرفة الفروق بين الحلم والواقع، لكن حالته لم تكن مجرد كوابيس عابرة بل مجموعات متتابعة يصعب عليه الخلاص منها أو الفرار منها بالصحو المفزوع قبل معاودة الرقاد لأنها كانت تعود بنفس ضراوتها وتكمل نفس أحداثها الدموية، يسأل روحه عن السر ويسأل من يتعامل معهم من الفاحصين وخبراء التحاليل والأصدقاء القدامى أو المعارف فيبدو له أنهم يستنكرون أو يكذبون أو يوشكون على اتهامه بالمبالغة بغرض الحصول على بعض الإشفاق أو التضامن معه، لكن العقلاء

منهم نصحوه بأن يستشير أساتذة كبار فى العلاج العضوى لأنه من المحتمل أن المسألة ليس لها علاقة بالكامن فى اللا وعى فلم يتردد، دخل تجربة جديدة ودار فى كل أركان المدينة قبل دخول أشهر مستشفى خصوصى لتجرى له الفحوص اللازمة، وعندما أخبره كبير الجراحين أنه سوف تجرى له عملية فى القلب على وجه التحديد لم يطرح السؤال الذى كان على طرف لسانه:

ـ ما هى العلاقة بين القلب والكوابيس؟

لكنه وافق على قرار الطبيب الذى أضاف له فى نفس المقابلة بأن وفدًا من الأطباء الأجانب والمتخصصين سوف يأتون لعمل عدد محدود من الجراحات المتشابهة ومن بينها حالته إذا وافق على أن يدفع لهم فرق التكلفة بالعملة الصعبة فتفكر وطافت فى خياله جداول الضرب والقسمة والجمع والطرح ثم وافق، غامر وباع ميراثه من الأرض التى لم يفكر قبل ذلك أبدًا فى التفريط فى قيراط منها، لعله كان يشعر بأن الدنيا سوف تضحك له مرة أخرى فأسلم روحه وبدنه فى اليوم المحدد للفريق الوافد من هناك، ابتسم له من كان يحمل فى يمينه إبرة البنج ويقتحم بها لحم مؤخرته، أحس بغيبوبة لم يفق منها إلا بعد يومين بليلتين بحسب ما أكدت له كبيرة الحكيمات الأجنبية بلغتها الأجنبية وهى تبشره بنجاح وفد الأطباء الأجنبى مع كبير الجراحين صاحب المستشفى الخاص ولأول مرة بإنقاذه المؤكد من كل الكوابيس التى استأصلوا مركزها بعدما كانت كامنة فى داخل قلبه وجاهزة للخروج لتقضى

عليه فى أى وقت، وأضافت أنهم زرعوا فى القلب صمامًا مخصصًا للكوابيس يقدر على منعها من التسرب مرة أخرى ففرح وجهز روحه ليعيش فى سلام وينام فى سلام.

كانت أم العيال الفرحانة بنجاته قد نذرت نذرًا بذبح عجل سمين فى كل عيد أضحى بغرض توزيعه على الفقراء والمساكين ولم يعترض، وكان فى كل عام من السنوات الخمس الأخيرة يفى بالوعد ويشترى عجلاً لائقًا قبل وقفة عيد الضحية ثم يستدعى جزارًا محترفًا ليذبحه ويقطعه ويقسمه أكوامًا لتوزيعها على من يستحقونها.

لعله خلال السنوات الثلاث الأولى وقد تخلص من الكوابيس كان يفتقد الأحلام والمنامات ويتمنى لو رأى حلمًا وديعًا طيعًا مثلما كان يحدث فى طفولته وصدر شبابه، لكن الأحلام رجعت فى العام الرابع ربما تحقيقًا لرغبته غير المعلنة لتناوشه مرة كل شهر، كان يصحو من نومه فرحانًا ويروى منامه أو حلمه بكل التفاصيل التى شافها لأم العيال التى كانت تفسرها دائمًا على أنها خير آت لا ريب فيه.

لكن الكوابيس عادت ناعمة فى البداية وممزوجة بالأحلام ثم زادت شراستها على مهل ولكن بدأب حتى أصبحت مثلما كانت وربما أكثر، قال الطبيب المعالج صاحب المستشفى الخاص إن المسألة خرجت من يده على كل المستويات وأن العلم عند المولى جل فى علاه، سأله عن الصمام المزروع فى قلبه وما إذا كان له

عمر افتراضى يتطلب التغيير أو أن يكون مجهزًا للزرع فى قلوب البشر لفترة محددة يتلف بعدها وينعدم أثره؟ فنفى الطبيب معرفته بأى شىء عن ذلك الصمام الذى يتوهم أنه انزرع فى قلبه على نحو ما يقول، وقال إنه من الممكن أن تكون كبيرة الحكيمات كذبت عليه وهو افتراض مستحيل، أو أنه لم يفهم الاصطلاحات الطبية لأنها كلمته بلغتها ثم أضاف أنه من الممكن أن يكون هو قد تخيل ذلك الكلام فى غيبوبته التى طالت، وقال أيضًا إنه من الممكن أن بقايا الأحلام والكوابيس التى تخلص منها بالجراحة قد تمكنت من ذاكرته ورسمت له حوارًا لم يحدث مع كبيرة الحكيمات التى تتميز بالقدرة على الكتمان وحفظ الأسرار، تاه فى أمر نفسه وانسحب بنظام من المكان بعد أن سدد فاتورة الاستشارة الطبية.

***

فى بداية الكابوس فقد روحه وتخلف البدن، لكنه حام بروحه حول الولد الكبير الذى كان يقوم بعمل اللازم لدفنه، يستأجر سيارة الموتى ويشترى الكفن ويسافر به مع أمه وأخوته إلى القرية التى ينتمون إليها، يغسلونه ويكفنونه فى داره ويحملونه فى نعش ثم يفتحون القبر ويحملونه ثم يرقدونه على ظهره بينما يقرأ الفقهاء سورًا من القرآن الكريم، سمع عبارات التلقين وردد كل ما طلبه منه الملقن، لكنه عندما انسحبوا وقد انسك القبر على البدن رأى روحه تحوم حولهم وترافقهم فى رحلة العودة إلى مسكنهم الكائن فى تلك المدينة المزدحمة، لعله فى بدايات الكابوس كان مفزوعًا

من المصير الذى انتهى إليه بعد كل المكابدات، لعله كان يرى نفسه مظلومًا منذ البدايات الأولى لكنه فى غمرة الاحتجاج كان يصرخ ويسمع صوت نفسه، لعله تقلب فصحًا لروحه مفزوعًا ليكتشف أنه ما يزال حيًا، بسمل وحوقل بمثل ما بسملت وحوقلت أم العيال، وعندما حكى لها الكابوس الذى رآه بشرته بالعمر الطويل وطالبته بتهدئة روحه قبل أن ينام، راح فى غفلة فرأى نفسه فى المكان ذاته والولد الصغير الذى كان قد امتحن نصف العام الأول واجتازه بنجاح يسعى إلى جواره للوصول إلى الجامعة وسط زحام لا يبشر بخير، صحيح أنه كانت هناك ساعتان باقيتان على موعد الامتحان لكن الطريق كان مزحومًا بشكل يغيظ، أشاروا لعشرات من سائقى التاكسيات فلم يعرهم أحد أدنى اهتمام، قرر هو أن يرافق الولد سيرًا على الأقدام لأن المسافة كانت تبدو له قريبة وممكنة لكنه برغم العناء والمكابدة وصل مع الولد بعد بداية نصف الوقت المخصص بعدة دقائق، كان يأمل أن يسمحوا له مجرد سماح بدخول اللجنة واثقًا من قدرة الولد على الإجابة، لكنهم أشاروا عليهما بالدخول من الباب المخصص لمن يتأخرون عن المواعيد فداروا حول مبانى الجامعة ودخلوا من أبواب وخرجوا من أبواب والدقائق تزحف مسرعة وقلبه يوشك أن يتوقف خوفًا على مصير الولد، لكنه قام مفزوعًا قبل أن يفقد روحه فى كابوس سخيف، شرب جرعات من الماء البارد من زجاجة ناولتها له زوجته التى كانت تحاول تهدئته وتعاود البسملة والحوقلة وتقرأ آيات من القرآن أيضًا، لكنه نام وتاه عن الوعى مرة أخرى ليرى روحه المعذبة

محاصرة بمجموعة من الجزارين الأشداء يحملون سكاكينهم وخناصرهم ومباردهم فى نفس الأحزمة التى كان يراها ملفوفة حول وسطهم أيام الأعياد التى كان يفى فيها بنذره الذى قطعه على نفسه بذبح عجل سمين يقوم الجزار بتقطيعه وتقسيمه لتوزيعه على المحتاجين، تذكر فى الكابوس أنه لم يتمكن فى هذا العام من الوفاء بنذره لأسباب متداخلة، كانت الأسعار قد تحركت وصارت أعلى من قدراته التى كانت تسمح له فى السابق بالشراء والذبح، لكن الجزارين فى الكوابيس لا يعرفون الرحمة لأنهم أحاطوا به من كل جانب مع من كانوا يطلبون الصدقة الذين كان يعرفهم حق المعرفة مضافًا إليهم العشرات ممن يطلبون أنصبتهم، كانوا يتكاثرون حوله وهو واقف أمامهم كمجرم حرب تسبب فى قتل المئات والآلاف من المحرومين والجوعى ظلمًا وعدوانًا، وكان يصرخ طالبًا منهم الرحمة لأنه ميت ولا تجوز عليه غير الرحمة ويستحق الدعاء له بالغفران لكل ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنهم كانوا يكذبونه فيستشهد ببدنه المدفون والذى تحلل فعلاً وفاحت رائحته التى تزكم الأنوف إلى حد أنها زكمت أنف روحه وهو صاحب البدن، ولعله قام من كابوسه القاسى بمعجزة بسبب أن زوجته اقتربت منه تتحسس رأسه عمدًا أو مصادفة فقام وجلس على نفس الفراش، حكى لها تفاصيل الكابوس وكيف أنه لم يرحمه لا الجزارون ولا طلاب الصدقات، عاتبته لأنها طلبت منه أن يتصرف ويشترى عجلاً للذبح فى صباح العيد الذى طلع فجره وبان نور شمسه وذكرته كيف أنه تعلل بضيق ذات اليد ولم تصدقه أبدًا

لأنها تعرف أنه مستور عن غيره ويستطيع ولو بطلب قرض من الوزارة التى يعمل بها أن يوفى النذر، شعر بالخجل وبشرها باحتمال أن يتمكن فى العام التالى من الوفاء بنذره وذكرها بتلك المسابقة التى تمنح من يحل شفرتها جائزة كبرى وقد حل أسئلتها وبعث الحل إلى مبنى التليفزيون آملاً فى الفوز لأنه من الممكن أن يكون هو الوحيد الذى حل اللغز واستحق الجائزة.

فى صحوه المؤكد كانت أصوات المصلين تتناهى إليه منظومة ومتتابعة فأمرها بإيقاظ العيال حتى لا تفوتهم صلاة العيد، تطهر وتوضأ ووضع فوق جلباب النوم عباءته وسحب سجادة الصلاة الخاصة ثم خرج بعد أن نبه عليها بمعاودة المحاولة مع العيال ليتبعوه للمسجد وحيدًا مع روحه سار فى الطريق ساعيًا ليلحق له مكانًا قبل أن تبدأ الصلاة، ومن بعيد رأى عياله وسط أصحابهم، سمع أسئلة العيال لهم عن عجل العيد فشعر بالحرج طوال الطريق إلى مسكنه، كانت المساحة البراح التى اعتاد مع سكان العمارة أن يربطوا فيها خراف العيد والعجول خالية إلا من عجل وحيد يلتف حوله جماعة من الجزارين ومن يطلبون الصدقات، وكان جارهم الشرس يزيحهم بعيدًا عنه وعن ذبيحته بالسباب والتقريع، يشير ناحيته بشماتة فيتحولون إليه وكأنهم وجدوا لديه مطلبهم، وبعسر العسر تخلص منهم ودخل مسكنه، وكان يسأل نفسه كيف أن أشرس ساكن بشهادة الجميع هو الوحيد الذى اشترى على غير العادة ذبيحة مع أنه لم يوزع أى صدقة على كل من وفدوا واستجدوا بأصوات مسموعة كانت تبهجه على ما بدا لكل من

شاف أو سمع، وقال له أحد سكان العمارة بينما يستقبله هامسًا فى أذنه أن الوحيد الذى ذبح عجلاً فى العمارة يتاجر فى الممنوعات ويكتب تقارير عمن يتاجرون فيها فيبدو متعاونًا مع أجهزة الأمن، استنكر فأقسم له الآخر بأنه صادق ومتأكد من معلوماته فبدت عليه الدهشة، لكنه بعد أن خرج الضيف شعر بدوخة حادة ورغبة فى النوم ممزوجة بخوف من الموت فى كابوس جديد، قاوم بقدر استطاعته وتذكر أنه فى زمن الشباب المندفع قاد مظاهرة ضد نفس الدولة التى يحمل جنسيتها نفس الوفد الذى أجرى له الجراحة فى القلب، خاف أن يكونوا بالفعل قد زرعوا فى قلبه صمامًا له عمر محدد يبطل تأثيره بعدها وارتكن على طرف السرير فشاف الكابوس المرعب والقاتل فى نفس الوقت ولم يستجب لهزات أم عياله أبدًا لأنه كان قد مات بالفعل.

***

حيرتنى ذاكرتى شبه المعطوبة بقدراتها المحدودة على رسم الصور الواضحة لبعض الأحداث لأتمكن من استعادتها وقتما أريد، ولأن ما يتبدى لى ليس أكثر من تداخل شاحب لأحداث أحسبها أساسية ومؤثرة فى حياتى وقد تحولت لتصاوير باهتة تختلف عما كانت عليه فى السابق بفعل أنصاف الدرب، تزداد شحوبًا وبهتانًا بمرور سنوات العمر خلسة على الرغم منى، ويختلط ما جرى بما صرت أراه فى المنامات والكوابيس والأحلام العابرة إلى حد يجعلنى أتشكك فيها وأقول لروحى إنها ذاكرة معطوبة لا يمكن أن

أطمئن إليها أبدًا بسبب فوات سنوات العمر القادرة على استعادة ما كان يدور حولى، أجدنى متشبثًا بقناعات تغزونى وتؤكد لى أننى لست مغيبًا تمامًا على النحو الذى تخيلته واستسلمت له، لعله نوع من مقاومة خفية للنسيان يبقى مخزونًا وسط تلافيف الدماغ، مسنودًا ومتداخلاً مع ما كنت قد قرأته فى كتب متنوعة حرصت على امتلاكها لأعرف هويتى وما كان يجرى فى أزمنة سبقت وجودى ووجود درب الثلاثين نفسه، أتخيلنى مزروعًا مرة أخرى وسط أوراقها فتتبدى واضحة وتستهوينى لأقاوم النسيان وعطب الذاكرة بإرادتى أو بغيرها، ثم أتوصل إلى يقين بأن الزمن الذى عشته يستند على تاريخ مكتوب يحمينى من النسيان التام لما جرى لى بتدابير الأنصاف الكثار فى درب الثلاثين.

سوف أعترف لكم الآن وبعد فوات الأوان بأننى طوعت روحى باختيارى أن أعيش وحيدًا ومقطوعًا من شجرة المدينة والدرب، لا أهل ولا زوج أو عيال، ولم يعد لى من أمل باق فى خلفة حتى لو سعيت لذلك لأن زمن القدرة ولّى، كنت موهومًا بأننى أضحى من أجل الناس فى درب الثلاثين وأنهم سيقدرون جهدى على الأقل، لكنهم أنكروا أهمية ما توصلت إليه من نتائج لأنها لم تأت على هواهم، لعل المصداقية فى مثل هذه الأبحاث لا ينتج عنها أى مردود أو تقدير إذا ما كانت النتائج مخيبة للآمال أو الأوهام، ولأن النتائج أكدت أن غالبيتهم فى أحسن الأحوال من الأنصاف، ولا بد أننى أخطأت عندما بحت لهم بما توصلت إليه دون تغليف بعبارات ملتوية أو غير مباشرة تحتملها قدراتهم التى اكتشفت أنها لا ترقى

لمستوى الوعى العلمى وقبول الحقائق، وجرى لى منهم ما جرى واكتملت عزلتى رغم أننى توهمت فى البدايات أن ما سوف أتوصل إليه سيسعدهم لأنه سيتحول لدليل أو شعاع من ضوء ينير لهم سكة المستقبل ويخلصهم من العتمة الساكنة فى أركان أدمغة أكابرهم المنوط بهم رعاية أهل الدرب، المسألة كانت شائكة ومربكة فى نفس الوقت، وكان من الممكن أن أقوم بتمزيق النتائج التى توصلت إليها وأغضبتهم من باب استخسارها فيهم، أمزقها أو أحرقها لأحرمهم وسلالتهم من الاستفادة منها، وكان الاستخسار يتبدى لى حلاً وحيدًا يليق بمواقفهم منى، لكننى تراجعت وترددت وأبقيت أوراقى فى أدراج مكتبى مرتبة ومحفوظة وجاهزة، آملاً فى إعادة اكتشاف محتوياتها بواسطة مجهول يأتى من سلالة درب الثلاثين قد يتمكن بوعيه الأكثر من وعيهم وحياد أكثر من حيادهم يعرف أهمية تلك الحقائق ويحاول أن يستفيد منها ويجد لناسه حلاً، رهان على مستقبل لم تظهر بداياته ولا أحسبنى سوف أعيش لأراه يتحقق فى زمنى الباقى، ولعله كان قدرى أن أتعايش مع ناس الدرب وأضحى بكل ما كنت أملك من أجلهم باختيارى وأنا فى غفلة من أمرى.

***

فى بداية تكليفى بالبحث عن الجذور كنت أرصد سلوكياتهم مستعينًا بكفاءات وحماسات مجموعة باحثين من شباب الدرب يشاركوننى نفس الحلم، مزهوين بما كنا نعتبره اكتشافات غير

مسبوقة بعد أن نتأكد من صحتها، أسهر الليالى وأبحث عن الكلمات اللائقة قبل تسجيلها فى أوراقى متوخيًا الحذر والدقة وعدم الخلط ما بين الحقيقى والوهمى، لكن المأزق واجهنى عندما اكتشفت أن غالبية أعوانى من الباحثين الجادين تباعدوا أو تم تشتيتهم فى بقاع مجهولة لأظل مع من تبقى منهم فى مواجهة من يهيمنون ويتحكمون فى مصيرى ومصير من شاركونى فى الأبحاث والذين كانوا بالقطع من أصلاب ظهورهم أو من مواليد بطون أمهاتهم، لكن وعيهم بالحقائق وضعهم فى خانة الخصوم مثلى، ولعلنى استعدت ما سبق أن قاله المرحوم والدى بأننا من سلالة المدينة الأصلية وإن كانت لنا علاقات قرابة من بعيد بحسب دعاوى بعض من قاموا بتأسيس درب الثلاثين فى بداياته، ربما كان اختلاط السلالتين بحساباتهم فى خلايانا وتخلى أكابر المدينة عنى وراء اختيارهم لى للسعى ومعاودة السعى كى أصل إلى حقيقتهم وأبوح لهم بما أتوصل إليه دون تزويق أو تغليف بعبارات ملتوية حسب الاتفاق لأننى عايشتهم أكثر مما تعايشت مع جذورى القديمة فى المدينة الأصلية فلم أتردد، بحثت لهم عن مخرج من مأزق يتحاشون مواجهته عبر سنوات كانوا يتباهون خلالها ويتوهمون بأنهم صاروا سادة زمانهم، لكن نتائج الأبحاث أكدت لى ولكل من ساعدونى أنهم ليسوا أكثر من أنصاف فى كل شىء، أنصاف غير واعين بما يدور حولهم، وتحسست رأسى هلعًا لأننى من مواليد منطقة متداخلة بين حدود الدرب وحدود المدينة وتخوفت أن أكون مثلهم من الأنصاف، وفى هذه الحالة تكون قيمة

أبحاثى التى انشغلت بها مع أعوانى طوال سنوات الشباب والرجولة والشيخوخة مشكوكًا فيها وبلا قيمة علمية، لكن هاجسًا آخر حاصرنى فى صحوى ومنامى وأكد لى أننى أنتمى بالقطع لأهل المدينة الأصلية، نشأت فى هامش المدينة المتاخم للدرب بشكل مؤكد، ولم أكن أملك مع من عاونونى غير الصدق والسعى بدأب للوصول إلى الحقائق المجردة بعيدًا عن منطق الربح والخسارة كما يفعل أنصاف الباحثين غير المؤهلين، وربما بسبب ذلك قررت أن أحتفظ بتلك الأبحاث التى استنكروها، فلعل واحدًا من أعوانى الذين اختفوا رغم كونهم من سلالة الدرب ينشرها، ولعل واحدًا من سلالتنا من أهل المدينة الأصلية يأتى ويواصل مشوارنا فى الزمن الآتى ليكشف الفوارق بين الأصلاء والأدعياء، الحقائق وأنصاف الحقائق.

***

يعرف أكثركم أن درب الثلاثين تأسس فى أرض صحراوية جافة وأنه كان هامشًا لمدينة عريقة حافظ ناسها على ميراث أجدادهم، كان هامشًا مشروعًا بحسابات أهل المدينة الأصلية فى أزمنة بعيدة، ومهما قلنا عن كسل أهل مدينتنا القديمة قبل وصول ناس درب الثلاثين وسكناهم فى هامشها فلن نتوصل إلا لحقيقة وحيدة دامغة تقول إن سكان الدرب كانوا وسيلة لغاية، والغاية تبرر الوسيلة كما كان سكان مدينتنا يتهامسون فى آذان بعضهم كلما لمحوا واحدًا ممن جاءوا وشكلوا فى أطرافها هامشًا يلجأ إليه

الوافدون الجدد الذين كانوا يقفون أحيانًا أمام أبوابهم على استحياء ويعرضون خدماتهم بأى مقابل يعينهم على استمرار الحياة فى ذلك الهامش الصحراوى الجاف المحروم من الزرع والماء والخالى من كل ما يساعدهم على البقاء، وكان أهالى مدينتنا يستمتعون بسماع تلك العبارات التى تقال لهم لتؤكد أنهم فى الحد الأدنى سادة، صحيح أننى كنت فى تلك السنوات ما أزال طفلاً ثم صبيًا يتفرج على ملامح وتقاطيع الوافدين إلينا من الخيام المرصوصة على مرمى البصر، وكان يرضينى أن أرى والدى أو والدتى تمنح الواقف أمام بابنا شيئًا مما نحتفظ به فى الدار مقابل أى مهمة ينجزها، أشعر بالزهو رغم اعترافها أمامنا بأننا فى هامش المدينة أو منطقة المستورين بدعاء الوالدين، أصلاء جارت عليهم الأيام فصاروا من سكان الهامش الذى كان موعودًا أن يكون متاخمًا لتلك البنايات العشوائية ومخلوطًا بها أكثر من المدينة نفسها، ولعلنى فى تلك السنوات وبعفوية تامة كنت لا أعترض على اللعب مع عيالهم فى مثل سنى وأسمع منهم الحكايات عن وجبات شهية تناولوها بعد أن حصلت عليها أمهاتهم من بيوت الأكابر نظير خدمات هينة، وكان البعض منهم يتباهى بما حصل عليه من ثياب وصلت إليهم شبه جديدة أو على الأقل نصف جديدة كان يستخدمها أطفال وصبية من أولاد المتيسرين فى مدينتنا، كانت مثل هذه الحكايات تؤكد لى أنهم مساكين ويحق لهم أن يعيشوا وأن تتحول الخيام التى يسكنونها إلى بيوت تأويهم وتحميهم من زمهرير البرد وغزارة الأمطار فى فصل الشتاء أو سخونة الشمس وقسوتها

فى الصيف، لكن توافدهم بكثرة وتشكيلهم لثلاثة هوامش تحيط بمدينتنا توشك أن تتداخل فيها حيّرنى وأنا فى سنوات الصبا ومطالع الشباب، أشتاتًا كانوا يأتون من بلدان لم أسمع عنها فى الكتب الدراسية المقررة قبل أن يتوافدوا بكثرة ويتحولوا إلى مربع ينقصه ضلع واحد يحيط مدينتنا من ثلاث جهات لأن الضلع الرابع كان بحرًا غويطًا وممدودًا لا يمكن للبنى آدم أن يرى له فى البعيد شطًا، لكنهم كانوا يستخدمون الهامشين عن يمين ويسار المدينة لركوب البحر بقواربهم دونما اعتراض، يصيدون الأسماك أو يجلبون البضائع من السفن العابرة ويعرضونها فى أسواق المدينة لمن يرغب، يستقبلون الوافدين للزيارة عند الشاطئ المشترك بالطبول والأغانى ونسمع لغات لم نسمعها من قبل، نتفرج عليهم ونتابعهم ثم ننصرف لبيوتنا ونسأل الآباء أو الأمهات عن هوية هؤلاء الوافدين فيهزون أكتافهم علامة العجز عن الرد على أسئلتنا المربكة، كنت أشفق على سكان الدرب وهم يتكاثرون ويستجيبون ويطيعون أى تكليفات بعمل أى شىء ليؤكدوا تبعيتهم لأكابر أهل المدينة التى صارت تحتاج لخدماتهم وقد تحولوا إلى ضرورة يلزم التعامل معها والاعتماد عليها فى الكثير من المهمات، وكان من أسسوا الدرب يستخدمون الخيام لتأويهم وتسترهم فى ساعات الرقاد، وربما أراحت هذه التصرفات أكابر المدينة لأنهم تأدبوا ولم يتجاسر أى واحد منهم أن يطلب من السادة مأوى يلجأ إليه فى واحد من أركان تلك الدور العتيقة أو السرايات أو القصور الموروثة التى كانوا يحرسون أبوابها طوال الليل أو النهار بحسب الوردية

المكلف بها أى بواب منهم، وفى خدمات المطابخ كانوا يظهرون التعفف وهو يتناولون ما يمن به عليهم سادتهم من بقايا الصحون أو الأطعمة التى باتت فى المواعين وفاحت رائحتها أو أوشكت أن تفوح، يأخذونها شاكرين ويسعون ناحية خيامهم ويتجمعون حول الوليمة هم وزوجاتهم وعيالهم أو إخوتهم وأخواتهم، يستشعرون الشبع بعد الجوع فيقبلون أياديهم ظهرًا وبطنًا ويحمدون المولى الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، كانوا يقومون بكل الأعمال المتواضعة دون مناقشة أو تردد، بل إنهم اخترعوا أعمالاً لم تكن موجودة قبل أن يتشكل الدرب بالإضافة للأعمال المألوفة مثل شراء الخضراوات من أسواق المدينة أو جلبها وبيعها على نواصى حارات أو شوارع المدينة بأرخص الأسعار، غسيل الثياب أو كيها وحمل الأشياء الثقيلة عن الكبار والصغار حتى ولو كانت حقيبة مدرسية يتدلل طفل من أبناء الأكابر فى المدينة أو يرفض حملها ويقول إنها ثقيلة، ولم يتوانوا فى عرض خدماتهم فى النجارة والسباكة وقيادة عربات الكاروا التى تجرها الحمير أو البغال، وكان من المألوف أن تسمع صوت أحدهم ينادى بصوته وهو واقف جنب مسنه يعرض استعداده لسن السكاكين والمقصات بأى أجر يجود به الأكابر ولو كان لقمة عيش جاف وفوقها أى غموس ليتخلص من جوعه ولا يتسول أمام أبواب البيوت أو فى الطرقات المزحومة أو يلملم الرحمة التى يقوم بتوزيعها أهالى الأموات أمام مقابر موتاهم، كانت أعمالهم متنوعة ويصعب حصرها لكنها حرف أو مهن لها مسميات مثل قهوجى أو جزمجى وطرشجى وعربجى

وخباز وتاجر قزاز أو فراز للمخلفات بعد أن يحملها صبية يلملمونها على عربات الزبالة لتوصيلها إلى مقالبها، يأخذون المقابل الذى يجود به أصحاب البيوتات بامتنان ويخلصونهم من مخلفاتهم ويبيعونها لمن وضعوا أياديهم على مساحات مفتوحة فى الصحارى المترامية التى كانت بلا أصحاب فى ذلك الزمن البعيد، يفرزونها بعد تغذية قطعان الخنازير التى جلبوها للمتاجرة فى لحومها فى الخفاء أولاً ثم فى العلن، لعل اكتشاف «مكمورة» الفول المدمس كان فتحًا لمن أحسنوا استخدام بقايا المخلفات، ربما لأن تدميس الفول على هذا النحو فتح أبواب الرزق لأصحاب الدكاكين الصغيرة من سكان الدرب ممن يسرحون «بقدرة الفول» بعرباتهم الصغيرة فى طرقات المدينة، يسحبونها بأنفسهم أو يستخدمون الحمير لجرها ليبيعوا «المدمس أو البليلة» المجلوبة من «المكمورة».

كنت أتعاطف معهم وأشعر أنهم مساكين ومحكوم عليهم وعلى عيالهم بالشقاء وبذل العرق ليحافظوا على حياتهم على العكس من أكابر المدينة الذين ورثوا ثرواتها عن آباء وأجداد قدامى نسمع أسماءهم فنشعر أحيانًا بالزهو لأننا بالقطع من سلالتهم، وأحيانًا نشعر بالسخط عليهم لأنهم يتعاملون معنا باعتبارنا من الطبقات الأقل قدرة، هوامش غير محمية من أهل المدينة الأصلية لكنهم ليسوا أصحاب جاه أو سلطان مثل سلالة البكوات والباشوات القدامى والمحدثين الذين لا يستشعرون المخاطر التى أصابت الطبقة الفقيرة أو الوسطى والذين كانوا يذوبون ويفقدون ببطء

غير محسوس كل ما كان يميزهم ويحميهم من أن يتحولوا إلى فقراء مثل من وفدوا إلى هوامش الدرب واختلطوا بهوامش أهل المدينة، فيتشابهون معهم يومًا فى إثر يوم فى السلوك والكلام وتناول الوجبات المتواضعة فى المطاعم الرخيصة فى أسواق المدينة والتى تمكن من امتلاكها بعض أهالى الدرب لبيع فول وفلافل وعدس وبصارة ولفت مخلل مع فجل وكرات وجرجير، لكن أحوال من كانوا فى مناطق الستر من أهالى المدينة الأصلاء تبدلت، يمكن أن يُقال إن الموازين انقلبت لصالح من أسسوا الدرب على حساب أمثالنا من أهل المدينة، وأثرياء المدينة فى مأمن يعيشون أيام زهوهم ويتزايدون بتدابير خفية مع بعض المقاولين الطالعين من أهل الدرب الذين كانوا يشمخون بالأنوف ليزيحوا بأكفهم أسراب الذباب الذى كان يحوم أمام أعينهم وكأنما ليعايرهم بطنينه المنطوق «أيامكم سلب ونهب للبسطاء من ناس المدينة وأنتم فى حماية أكابرها الغافلين» وكان أخطر ما جرى فى تلك المرحلة هو ذوبان الطبقة المستورة وانحدارها لما هو تحت خط الفقر.

ولعلنى فى مطالع الشباب كنت أكابد الشعور باختلاط الأصول وطلوع بعضهم على حساب من كانوا مستورين من أهل مدينتنا دون مبررات إلا أساليب التودد للأكابر الذين تنكروا لناسهم لصالح هؤلاء الوافدين، ولعلها كانت البداية التى فكر فيها من صاروا أكابر الدرب فى استخدامى كى أكتب لهم تاريخًا يشعرهم بمزاياهم وأكشف لهم قدراتهم على تحدى المصاعب، ولست أعرف من منهم

على وجه الدقة هو الذى أشار عليهم بذلك، كنت بلا عمل أسعى حاملاً مؤهلاتى لأعرضها على المسئولين عن الوظائف اللائقة بمؤهلى فى مصالح المدينة، ولأن شيئًا مما كنت أحلم به لم يتحقق صرت مثل أمثالى عاطلاً بمؤهل عال أجوب شوارع المدينة مع من هم فى مثل حالتى، نتجول فى أزقة الدرب وحواريه ونجلس فى مقاهيه لنلعب الورق أو النرد أو نتفرج على الأفلام القديمة فى التلفاز الملون وندفع مبالغ متواضعة بالقياس لما كان يلزم أن ندفعه فى مقاهى مدينتنا مقابل نفس الخدمة.

مشحونًا بالقهر الناتج عن إصابة المرحوم والدى بشلل رعاش على غير ما كنا نتوقع، لعله عندما عرف قيمة معاشه بعد خدمة ممدودة فى حكومة المدينة شعر بالمهانة وكتم مواجعه، ولعل عجزه عن توظيفى على النحو اللائق جعله يشعر بعجزه والشلل الرعاش يؤكد أنه كان يعيش أواخر أيامه مستشعرًا سقطة عمره فى مدينة من ترحمه بعدما استخدمته واستنزفته، لكن حالتى كانت معكوس حالته تمامًا لأننى طاوعت مشاعرى وتعاطفت مع الغرباء موهومًا بأنهم ضحايا لأكابر المدينة وشركاء لنا فى الهم، وقبولى لوظيفة الباحث عن أصول أهالى درب الثلاثين توهنى فلم ألتفت إلى تلك الطبقة الطالعة منهم والتى كانت فى خانة الأتباع فصاروا شركاء فى مشاريعها، يسكنون المدينة بمباركة أكابرها برغم انحطاط سلوكياتهم، وناس المدينة التى سرت فى طرقاتها وبين جدران بيوتها همسات وهمهمات عن صفقات واختلاسات وسرقات مشتركة بين القدامى والمحدثين، مخفية أو معلنة، أرانى

معزولاً عمن أنتمى لسلالتهم وقد خانونى عندما خانوا المرحوم والدى وجلبوا له الشلل الرعاش الذى أودى بعمره، ومعزولاً أيضًا أو مكروهًا ممن كنت أتعاطف معهم وأحسبهم من الضحايا فإذا بهم يتقافزون ويهيمنون ويمتلكون وأنا فى غفلة من أمرى أقدم لهم أبحاثى واهمًا أنهم سيتحولون لدرع يحمى مدينة مشتركة ذابت فيها الهوامش وصارت كتلة محاطة بدرب الثلاثين الذى كانت بعض أحيائه تضارع أو تتفوق على قصورها القديمة.

***

بدا لى أنه أغفى فانسلتّ من تحت الغطاء الخشن الذى يستخدمه ويجبرنى على استخدامه، أجلستنى على المقعد الجاف وأمسكت قلمه، استحضرت كلماته وشرعت أخط على الورق حكايتى معه، عفوًا لأننى لم أتعرف إليكم إلى الحد الذى يسمح لى بالكتابة لكم، لكنه يفعلها ويجرؤ فكيف لا أحاول؟ اسمى سنب زوسر كا ومهنتى كاتب، لى تمثال من حجر البازلت الأسود وأنا جالس القرفصاء وعلى حجرى لوح يسند قرطاسًا من ورق البردى، وفى يمينى قلم بوص أرسم به اللغة المقدسة، ولى رسوم شائعة لا يبين فيها اسمى المنقوش بخط غائر فى قاعدة التمثال، رسومى فى الزمان القديم ثابتة الألوان لا تمحى، هى مجد الفراعين الستة وزهو للأسلاف، أخطو مدفوعًا بالأيام على عتبات الخمسين مثله، وإن كنت أراه الآن أمامى فى رقاده القلق الذى يشبه الصحو وصحوه الذى يتعادل مع الرقاد، عودنى أن أتبادل مع الأزمنة

ضجرًا، تضجر منى وأضجر منها، أشعر بعداوات وصداقات تتداخل، وأطالع وجوه الناس بغربة، غضبان أو فرحان أو مندهشًا، أرقب بعيون الراقد سطح النهر الساكن فى زمن لم أختره وإن عايشته، فأنا أسكنه الآن، وسليلى حامل وجهى ومبدّل قلمى وأوراقى والطامح أن يرثنى ويأخذ رتبتى ذلك اللاّبس سراويلاً من نسيج مخطط والصدر عار، يغط فى النوم ويتنهد بحرقة فيزود عليه سخطى، أنا أقدم كاتب فى تاريخ الأرض المسكونة أتردّى إلى حد التشكى من المصير التعس الذى أعادنى فيها، ومن خلال عينيه أرى، هاتين العينين الخابيتين اللتين تختبئان وراء زجاج سميك مؤطر بمعدن فضى كنا نستخدمه فى تحلة صدور النسوة وزنودهن، يجرجرنى معه فى زحام مدينة غريبة ملوثة الهواء تتطاير فى طرقاتها وحوش لا حصر لها من حديد وصاج ملون تحملها دوائر من عجين أسود مطاطى القوام، معذبى ومقلقى فى هدأة الليل القادر على القيام والجلوس ورسم حروف تشبه الثعابين والمباخر والشواديف والسلال، يوقد فى الليل شموسًا وأقمارًا صغيرة ويقرأ أو يكتب.

سأحاول أن أخرج من جلدى الآن وأدخل جلده فقد تقلب وجلس، وسأدخل أيضًا فى ذاكرته وأطرد ذاكرتى الأولى، ألبس ثوب عصره وأجاهد ألا أندهش لآلاف الأشياء المدهشة التى تجرى من حولى من سوء الحظ رمانى داخل هذا الجرذ الأحمق، لو كان يحق لمن عاد ليحيا عمره الثانى بعد طول الرقاد والسكوت أن يختار البدن الأنسب لاخترت سواه، حتى لو لم يعمل فى نفس المهنة أو

يحمل نفس التقاطيع، هوان لمهنتى أن تدخل هذا البنيان وهوان أكثر أن أعود فيها أنا سنب زوسر كا.

سيادته إن كان لدود الأرض سيادة لا يليق بى على أى نحو، حتى لو حمل اسم أحموزى طارد الهكسوس محرفًا فتلك خدعة تناسب البدايات وسرعان ما ينكشف أمرها، وحتى أكون منصفًا أعود وأقرر أنه فى صدر شبابه أغرانى بكتابات لائقة بشرت به كاتبًا مرموقًا فى زمانه، ولولا أنه انحدر بقوة لأعطيته كل أسرارى ومكنته من تلافيف ذاكرتى وتلوت على مسامعه أناشيدى وأورادى وألبسته خاتم الوظيفة المقدسة، لكنه لأسباب لم أتبينها خذلنى وخذل نفسه وروح الفرعون الإله الذى يتسمى باسمه محرفًا، قلبه خفيف ربما، أتخيله وقد عاش الزمان الأول وأنكر عليه احتمال القيام بمث دور الفرعون الإله، مثله كان من الممكن أن يخشى أماكن ظلالهم التى غادروها، ولست أصدق هواجسه التى تنتابه فى أنصاف الليالى وهو يقوم مفزوعًا ومدّعيًا أنهم خلفه وأمامه وحوله يدبرون له المكائد، من يملك أن ينزع الأسماء عن الأبدان التى لا تستحقها فى زمانكم يا سادة؟ من يثبت القلوب الرعديدة والعقول المرتابة التى تتلفّت حواليها فزعًا من كل غريب زائر مخافة أن يكون خصمًا يتلصص؟ هو صرصور يمط قرون استشعاره فى وجل ويسارع بالاختباء خلف أى ساتر أو داخل أى تجويف معتم، يجرجرنى معه بالإكراه لأتوارى وأنا الساكن أرض وطنى، لا أدرى إن كان هو الذى سكننى أو أننى سكنته، لكننى أعرف إلى أية هوة سحيقة سقطت بوجودى معه، كنت فى الزمان الأول سيدًا تحوطه

احترامات الكل، وكنت معه هو نفسه فى البدايات أنعم بالجسارة التى تطل من بين سطوره، كان يكتب ما يعن له، يقرأ كتب الحكماء ويبحث عن برديات الأسلاف يترجمها ويحفظ نصوصًا سطرها الكتاب السحرة، كان يساوينى فى صدر شبابى إلى حد أننى كنت محسودًا لاكتمال التوافق بينى وبينه، لكنها كانت بدايات سرعان ما تبددت وزالت ثم استحالت.

***

أتذكر أننى كنت أحوّم فى أفق الوادى روحًا قلقًا يبحث عن بدن لائق، كنت أطل على النهر حين رآنى، كان قويًا وعارفًا قدرى فى ذات الوقت، لاحظ أصحابه وجه الشبه بيننا، عملوها نكتة وأجلسوه يومها فى بيت أحدهم عارى الصدر جلسة القرفصاء وضحكوا، فرحت به وبهم وتذكرت شباب، تذكرت على وجه الدقة أستاذى ومعلمى وسيدى يوم أسلمنى قلم البوص وقرطاس البردى نصف المكتوب وأجلسنى القرفصاء، قال أكتب فكتبت فى حضرة الفرعون، عاد وقال أكتب فكتبت، أخذ البردية وأراها للفرعون ومجلسه العادل، قال كبير الكهنة: هذه السطور نسيج من نفس التيل، وقام الفرعون وغطى رأسى بالمنديل الذى تتقاطع خطوطه عند لقاء الأذنين بالصدغين، لا فرحة فى الدنيا تتساوى مع تنصيب كاتب، جلس الفرعون واقترب منى كبير الكهنة، رشنى بالماء المقدس وقال بصوت جهورى رج جنبات القصر:

«هو أنت الآن يا ـ سنب زوسر كا ـ كاتب مسئول عن رسومك، لا

تكذب، لا تكسر سن بوصتك جنبًا، ولا تكف عن غمسها فى حبر الكتابة ابتعادًا عن المخاطر، وأكتب، لا ترهب أعداء الأرض السوداء المقدسة وإن جاءوا فى ثياب الأصدقاء، وأكتب، لا تتعلل بعيالك أو جوع امرأتك واكتب، لا تتلون مثل الحرباء أو تتشقلب مثل القرد أو تغمض عينيك عن الأخطاء، وأكتب، وإذا أخطأ كبير الكهنة أو نسى الفرعون عدله الأبدى فاكتب، لا تتردد فى كشف الأخطاء، فللفرعون عمرك وأنت فداه، لكن الروح لرب الأرباب».

***

سوء الحظ رمانى فى بدن لا يعرف قيمة ما ورثه، تقف حدود المعرفة لديه فى أجداد من فلاحين وصيادين وبنائين وصناع سلال وحصير وحبال شواديف، وأب شغلته نجار براويز صور وأسرة ودواليب وأحيانًا حين يضيق الحال يصنع للنسوان طبالى ومطارح وكراسى حمامات، يكسب قوت اليوم ولا يدخر سوى المليم أو السحتوت لأيام العطلات وبوار الصنعة، ولأنه يوم مات أورثه فقرًا وديونًا يصعب سدادها، أوشك أن ينكسر فى سعيه المتواصل لشراء حبات الحنطة يصنع بها خبزه وخبز عياله، ولحبات الحنطة أو قل ندرتها فى الأرض السوداء وجع، وجعان، الأول تلك الندرة والثانى إصرار ابن النجار على الشكوى، والشكوى عجز، وأنا فى نفسى شىء شامخ يتأبى أن يتباكى على الصغائر، كبار النفوس كبار الناس، صغار النفوس صغار الناس فكيف يجىء الزمان الذى تغوص فيه نصال العوز فى قلوب النفوس الكبيرة؟ ومن فعلها

أحدّث عنه النهر والصحراء والبحر البراح؟ ومتى تفرغ النفوس الكبيرة لتصنع للناس أحلامها؟».

***

رجل فى الخمسين كان يسير قريبًا منى ويدعو ربه بصوت مسموع:

«يا رب، استرها معى، أنا لا أطلب أكثر من جرعة ماء من نهر النيل ونسمة هواء قليلة الفساد، وحيز مسقوف يدارى معى الزوج والأولاد وكسرة خبز ترد الجوع».

عندما رآنى دندن وتظاهر بالغناء تأملته فوجدته شبيهًا بكاتب المظالم عند باب المحكمة، كدت أحدثه عن أن الشكوى وسيلة العاجز، لكنه أسرع خطاه ودخل الزحام وما عدت قادرًا على تمييزه أو اللحاق به، لو كان مثله يعيش فى زماننا لحدثت الفرعون عنه وأرسل من يحضره من أمام المحكمة ليمنحه أرضًا ودارًا وأبقارًا لأنه وإن كان مجهولاً لديه فهو كاتب يسجل على أوراق البردى أمجاد الزمان الذى يعيشه ومخازيه.

عجيبة هى الحياة فى مصركم يا سادة، هذا الوغد ساكنى أو سكنى نطق الحكمة أو نقل الحكمة، «يعطى سره لأضعف خلقه» هكذا سمعتها وتأكدت من بعض صدقها بعد تفكير عويص، وإذا كنا نحن قد عشنا زهو زماننا لأننا كتبنا ما كان يمليه علينا الفرعون أو كبير الكهنة أو حكيم الحكماء، فها هو ذا رجل فى الخمسين مصاب بالوساوس والهواجس ومتسلطة عليه أفكار لا

تسر، خياله مريض بأحلام يقظة دموية الطابع، يتوقع لا أدرى لماذا الشرور من الجهات الأربع، يجلس على مقعد حاف ويسند كوعيه على تختة قديمة من خشب كالح ثم يمسك قلمه ويكتب أشياء، أراقبه من بعد فألاحظ أنه يشغّل خلايا مخه ويتصور أشياء لا حصلت ولا كانت لكنها تبدو كأنها كانت، بل إنه يرسم بالكلمات شخوصًا لم يصادفها أو يسمع بها، وأقول لنفسى لعله السحر، لكننى أكتشف أن السحر وسيلة السحرة وهم قادرون على تحويل الطمى ذهبًا وتحويل الأوزة بقرة، وعليه فلا سحر هناك، ولقد حاولت منذ البداية أن أفعل فعله فكابدت شقاء ما بعده شقاء، لكننى لم أستسلم وداومت على المحاولة إثر المحاولة حتى تمكنت من مسايرته والسرحان معه، هو نفسه لم يدع لى فرصة كى أفكر فى التراجع، وذات مرة شعرت بزهو يفوق كل زهو صادفته، انشرح صدرى وأحببت الحياة أكثر وأكثر، وجعلت أدرب ذاكرتى لتستعيد تواريخ ونوادر وناسًا من أزمنة فاتت، وجرؤت وقلت لنفسى ك ها أنتذا يا ـ سنب زوسر كا ـ كاتب جديد، ورقصت مرة لأننى كتبت للأطفال حكاية أعجبتهم، رقصت بنشوة غامضة لم أجربها قبلا، كان يناولنى الكتب كتابًا فى أعقاب كتاب ويوصينى أن أقرأ، أن أفهم، ألبسنى إطارًا يحوط دائرتين من زجاج سميك، وسمانى مثقفًا وهو لفظ من تلك الألفاظ الغامضة التى لم أفهمها جيدًا فى تلك اللغة المراوغة شربت أطنانًا من الشاى الساخن ودخنت ملايين اللفافات، ورأيت كتاباته إلى جانب صورتى على صفحات المجلات وأوراق الصحف، حزنا معًا إعجاب الخلق وما حصلنا

على أكثر من وظائف بملاليم، جوّعنى وجوّع أولاده وزوجه، لو أشبعنا يومًا جوعنا يومين، أطفاله الصغار يتامى فى وجوده فكيف يكون شأنهم بعد موته؟ مجنون بشراء الكتب وأجبن الجبناء فى شراء اللحم، ذات مساء سمعت صراخ زوجته بسبب لفافة كتب شالها بفرح ناسيًا خبز أولاده، بينى وبينكم لها حق، فاض الكيل يا سادة ولم يعد للصبر معنى، كنت مفزوعًا من الشر الطالع من عينيها وفرحانًا لأنها جرؤت مرة وأفحمته.

***

فى البلد مجاميع من الناس تتحزب وتتبادل الخدمات، لكنه خارج عن كل الدوائر، وحيد وحدة قاتلة، لا أنكر أن له أصحابًا أكثر من أصحابى، لكنهم أفراد، كل منهم جزيرة معزولة وسط بحر صاخب يعلو فيه صوت الهدير وترتفع الأمواج، عصا مفردة سهل كسرها، يكتب للمجهول ولا يأخذ ثمنًا، يتحدث عن عدل لم يوجد أبدًا فوق الأرض، وأنا العارف أسرار التاريخ المكتوب وغير المكتوب أؤكد أن لحبّ الأرض حدودًا، وإن ضاقت بك أرضك فارحل عنها تتحقق، غيره يا سادة سعى وتنقل، حاول ولم ييأس، عاد بثمن الحنطة وأساور للنسوة، صاحبنا أرضاه كلام سطّره عن طين الأرض .. ضيعنى، أوجعنى، قلت أوبخه يوم أصيب الطفل بجرح لم يملك ساعتها أجر طبيب يوقف نزف الدم: «إعشق طين الأرض وزودها بدماء الطفل النازف يا أجهل جهلاء الأرض" أطرق بالعجز عن الرد.

خمسون عامًا يا سادة وأنا الراجع من أزمنة الجرأة أصرخ فيكم وأنبهكم إلى ضرورة عمل تمثال جديد من طين الصلصال لكاتب مسخرة ذاب فى حروف لغة عصية مراوغة وجبن منذ البداية عن اقتحام الحياة، مخضوض الملامح دومًا ويعانى من فقر الدم، يدّعى أن اسمه أحموزى أو أحمس ويكذب، ويشمخ بأنفه متوهمًا أن لأمثاله فى هذا الزمان قيمة، اعملوها وجهزوا مادة التمثال، مجرد بركة صغيرة من طين الصلصال، وأؤكد لكم أنكم سوف تضحكون كثيرًا كثيرًا حتى تدمع عيونكم من كثرة الضحك على شكل التمثال الجديد لكاتب قديم نادرًا ما يتكرّر.

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

تقدم هذه الرواية إضافة جديدة وملموسة لرصيد مبدعها الكاتب الروائي المعروف: أحمد الشيخ الذى إستكمل خماسيته الروائية عن كفر عسكر، وعندما قدم لنا المدينة فى مجموعاته القصصية، بدت لنا تحذيرًا للبسطاء من العنف البشرى الذى يثير الدهشة.

وفى هذه الرواية يقدم رؤيته لنفس المدينة بقضاياها الساخنة وصراعاتها المشروعة وغير المشروعة، وكيف بدت لبعض أبطالها غولاً قادرًا على استلاب الأحلام والأمنيات، والحياة فى المدينة تكشف له بؤر ضوء لم يكن قادرًا على كشفها لو لم يتعايش بمشاعره مع من هم أوعى منه وأكثر قدرة على تفسير الأشياء، ومتفاعلا ومتداخلا مع شخصيات تؤمن بالوطن وتحلم له بالتحرر والإسهام فى صياغة المستقبل المأمول.

تصميم الغلاف: الجميلة حسين

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774213849